الموسوعة الثقافية

67

مذكرات ورحلات الى بغداد

ترجمة : كاظم سعد الدين



سلسلة ثقافية شهرية تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فـــي 20 / ذو القعدة / 1444 هـ
الموافق 09 / 06 / 2023 م

سرمد حاتم شكر السامرائـــ



الموسوعة الثقافية

سلسلة ثقافية شهرية تتناول مختلف العلوم والفنون والاداب
تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة وزارة الثقافة

رئيس مجلس الادارة : نوفل أبو رغيف

رئيس التحرير : حنون مجيد

سكرتير التحرير : سلمى موسى علي



دار الشؤون الثقافية العامة

تعنون جميع المراسلات الى
المدير العام
ورئيس مجلس الادارة
السيد نوفل هلال ابو رغيف
العنوان:
العراق - بغداد - اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar - Iraqculture@yahoo.com

ترجمة: كاظم سعد الدين

مذكرات ورحلات الى بغداد



الطبعة الاولى _ بغداد _ سنة ٢٠٠٩

تقديم

تتناول مذكرات وليم ويلكوكس مهندس الري البريطاني المكلف من الحكومة العثمانية للقيام بالمسح وتقديم مخططات مشاريع الري في العراق ولاسيما مشروع سدة الهندية بين سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٨ ومشاهداته في بغداد وتصرفات الموظفين العثمانيين وشق الشارع الجديد من الباب الشرقي باب المعظم، ووصف نهر دجلة ومشاهداته في الاماكن التي عمل فيها بين بغداد والبصرة مروراً بالمسيب وكربلاء والاهوار.

اما رحلة حميد يارجونك بهادر الهندي الى بغداد مع والده من الهند الى العراق فيصف الاوضاع والاماكن التي مر بها الفيضان الذي حل بالبلاد سنة ١٩٠٧ ومرض الكوليرا الذي تفشى في تلك الاماكن ووصف وسائط النقل النهرية والبرية والوضع الأداري للعراق في ابان الحكم العثماني وتصرفات الموظفين وزيارته كربلاء والنجف وبغداد والشيخ عبد القادر الكيلاني وحلولهم ضيوفاً على آل النقيب في البصرة وبغداد ووصفه بيوتهم في تلكما المدينتين ومآكلهم ومشاربهم ويعرج الى وصف الخيول العربية في العراق.

اما الرحلات الاخرى فتتناول الاوضاع في اثناء الحرب العالمية الثانية. رحلة كودالا، مؤلف ثلاثة ملوك في الحجاز وثلاثة ملوك في العراق، تصف حرب القوة الجوية البريطانية في الحبانية ووضع الجيش العراقي وحركة رشيد عالي الكيلاني في مايس ١٩٤١.

اما رحلة جيرالد دي كاوري فتتناول المدة نفسها ولكن من زاوية أخرى واحداث اخرى، وهرب عبد الاله ونوري السعيد الى فلسطين ولجوء الملك فيصل الثاني الى اربيل، ثم عودة عبد الاله والوصي وحكومتهما بعد فشل الحركة، وهرب رشيد عالي وحكومته الى خارج العراق.

اما رحلة جون اوكيرني فهي وجهة نظر اميركية اخرى بعد تأميم قناة السويس.

ولابد ان نذكر انه ترد في غضون الرحلة والمذكرات في نصها الاصلي الفاظ وعبارات غير اللائقة وغير المساغة ولا تعبر عن واقع حقيقي، وهي رأي كاتبها، وليس للمترجم او المراجع او غيرهما حذفها او تغييرها او تلطيفها ارضاءً للقارىء العراقي والعربي، بل ثبتت لاطلاعه عليها كما وردت لدى الكاتب المغايرة لوجهة نظره. وقد سجلت بعض الملاحظات والتعليقات على ماورد في هذه المذكرات او الرحلات في اولها او في نهايتها.

المترجم

كاظم سعد الدين

(مذكرات وليم ويلكوكس في العراق)
١٩٠٨ – ١٩١١

تقديم

[وليم ويلكوكس (١٨٥٢ – ١٩٣٢)

ولد وليم ويلكوكس سنة ١٨٥٢ في الهند، عند جبال الهملايا. وكان ابوه مهندساً للري، وقد اختار الاب الدراسة لاولاده الخمسة. فدرس وليم هندسة الري في الهند على ايدي مهندسين بريطانيين، وتخرج واشتغل في الهند نفسها في مشاريع الري حتى سنة ١٨٨٣. ثم استدعي للعمل في الري في مصر ولاسيما في (خزان اسوان) من ١٨٨٩ حتى ١٨٩٨ واشتغل سنة واحدة (١٩٠١) في جنوب افريقيا ثم عاد الى مصر من ١٩٠٥ الى ١٩٠٨، واستدعته الدولة العثمانية للعمل في العراق للقيام بالمسح وتقديم مخططات مشاريع الري فيه ولاسيما مشروع سدة الهندية. وتعاقد لمدة خمس سنوات غير انه لم يستطع اكمال المدة فترك العمل في منتصفها. وهذا ما سيطلع عليه القارىء في مذكراته. ثم عاد الى مصر من ١٩١١ الى ١٩١٤ وذهب الى كندا سنة ١٩١٢ والولايات المتحدة سنة ١٩١٤. وتشمل مذكراته الاماكن التي ذكرناها آنفاً في كتابه: Sixty years in the East المطبوع في لندن سنة ١٩٣٥]

المترجم

مذكرات وليم ويلكوكس
في العراق (١٩٠٨ – ١٩١١)

جلب انتباهي اول مرة الى دلتا نهري دجلة والفرات (السيرسيل سبوتك رايس) الذي وضع بين يديّ مذكرات الكابتن فيلكس جونز، من (البحرية الهندية) القديمة، وبعد قراءة تقريره عن البلاد وامكاناتها تحمست كما تحمس جيمز قبل خمسين سنة. فامضيت من شتاء ١٩٠٤ – ١٩٠٥ شهراً واحداً في بلاد بابل متنقلا على عجل فوق الجداول القديمة مسجلاً مصبات النهيرات، جامعاً عينات من التربة والماء، مستشيراً كل من لديه دراية محلية. فقدم لي سيرجون إليوت من (قسم الارصاد الجوية الهندي) جميع المعلومات المتيسرة عن الاحوال الجوية للبلد، وزودني الميجر نيومارج، المقيم البريطاني، بمعلومات متنوعة جمعها خلال سنتين، وجمعت شركة بلوكي وكري حقائق تجارية، في الوقت الذي شرح م. موكل، مهندس ري المنطقة، نظام النهرين.

وحين وصل حزب تركيا الفتاة الى السلطة في ١٩٠٨، استدعاني كامل باشا، الصدر الاعظم [رئيس الوزراء] الى اسطنبول وعهد إليّ بإعداد مشروع احياء منشآت الري القديمة في البلاد. وعلى وفق ذلك غادرت مصر في تشرين الاول ١٩٠٨ مع اثني عشر مهندساً، وفي نهاية نيسان ١٩١١ سلمّت الخطط، والخرائط والتقارير والتقديرات التخمينية الى السلطات العثمانية، ونشر هذا التقرير مع خططه وتقديراته السادة إي واف. إن سبون بعنوان (ري بلاد الرافدين).

قبل البدء طلبت المشورة بشأن الطريقة الفضلى التي استطيع العمل بها مع الاتراك في العراق. فقيل لي:

١- لا تتشاجر مع الالمان ابداً في أي شيء وإلافانهم يدمرون عملك.

٢- لا تذكر ابداً كلمة هندي لان الاتراك يخشون دخول الهنود دلتا نهر الفرات.

٣- سوف يتظاهر كل موظف تركي بالغباء لكي يستدرجك، فهؤلاء الناس ليسوا حمقى، وعليك الابقاء على خططك طـي الكتمان عند وجودهم".

كانت هذه النصيحة سليمة. وقد افادتني طوال عملي لاجل الاتراك.

سافرت بطريق بومبي وكراجي والخليج العربي ووصلت ارض البصرة العثمانية وهي تجربتـي الاولـى فـي الادارة التركية وكان على الباخرة الهنديـة البريطانيـة ان تخضـع للحجر الصحي بسبب الطاعون في الهند. كان زورق الحجـر الذي يحرسنا يأخذ طعامه بانتظام من باخرتنا، ويحتاط للامر ويكون في الجهة الاخرى عندما يزورنا احد المقيمـين فـي البصرة في (البلام) او زوارق النزهة ويغادرون ومعهم علب سيكار ومشروبات كحولية. ولدى مغادرتنا لاجـل التعقـيم، اقترب الموظفون المسؤولون عن ذلك الواجب مني، فاتبعـت اسلوب اكثر المسافرين خبرةً وقدمت خمس روبيـات فضـلاً عن السبع روبيات وثماني آنات فسمحوا لي بـالمرور وقـد رشوا قليلاً من الماء النظيف على سترتي.

واخبرت ان كلمة (بلم) مع مصطلحات اخرى في الملاحة في نهر دجلة ادخلها اهل الملايو الذين كانوا ملاحين في ما مضى في الشرق. وفي مصر اقتبست الكلمات المماثلة، (فلوكة) وغيرها من اهل البندقية.(*) وقد تبرع وكيل شركة الهند البريطانية متكرماً ان يكون مضيفنا في اثناء بقائنا في البصرة التي كانت قذرة، مهملة على نحو لا يوصف. ومع ذلك فان الطبيعة البشرية حتى في هذا المكان البدائي مشابهة لما في العالم المتمدن. السيدة رامزي، زوجة المقيم البريطاني في بغداد، غادرت البصرة على الباخرة (كوميت)، ولم تبتعد كثيراً حتى رأت امرأة عربية تحمل حليباً الى المدينة، فتوقفت الباخرة، وحين سألوا عن سعر الحليب، اعطت رقماً يزيد عن السعر الذي يدفع في البصرة. ولما اعترضوا عليها، اجابت ببساطة متناهية "ان السعر عال لانها لم تخلط الحليب بالماء". ثم واصلنا رحلتنا صعوداً الى بغداد على احدى بواخر (لينج) مع عدد كبير من الزوار الهنود في طريقهم الى مراقد الائمة في كربلاء والنجف.

وفي رحلة لاحقة في الخليج رست باخرتنا في مرفأ بوشهر وتجنبنا أي اتصال بالمدينة لانها كانت مصابة بالطاعون،

غير اننا كان علينا اخذ حقائب البريد من سفينة شراعية جاءت الينا.

ولما كانت السفينة متوقفة قرب باخرتنا، رأيت جرذاً يصعد راسية السفينة ويقفز الى باخرتنا، فطاردته غير انه كان خفيفاً واختفى في جانب الباخرة. في هذه الرحلة رأيت أعجب تألق فسفوري يمكن تخيله. كان الليل مظلماً ولكن الباخرة دخلت فجأة بحراً من النور الشفاف وشقت طريقها بين امواج ملتهبة من الذهب البرّاق. وراحت دلافين تسابق الباخرة. ومهما كان العمق فانها كانت تحت سطح الماء تنير متألقة كأنها انوار كهربائية في الوقت الذي كان الماء الذي ترشه الى الاعلى وهي تأتي الى السطح تصنع ألعاباً نارية. كانت كل سمكة مضاءة بالطريقة نفسها، وبدت الباخرة تجذب كل شيء اليها لأن المياه كانت مزدحمة بالاسماك والدلافين التي كانت تسايرها. وبعد عشر دقائق زال كل شيء، وبدا أننا دخلنا ظلاً دامساً.

لدى وصولنا بغداد حللت ضيفاً على الكولونيل رامزي، المقيم البريطاني. وكان على المقيمية سبعون حارساً من السباهية ثم رست الباخرة المدفعية (كوميت) في دجلة امام

المقيمية. وقد اعادتنا المقيمية والحرس والباخرة المدفعية الى ايام الحكومة الهندية التي كانت تجوب الخليج وتطهره من القراصنة، ولكنها كانت تجوب نهر دجلة من البصرة وبغداد وترسل احياناً احد عشر زورقاً مدفعياً الى اعالي النهر. ولولا حكومة الهند لخلع وادي دجلة والفرات النهر التركي كما فعل وادي النيل في زمن محمد علي، فالناس في مصر يقولون ان محمد علي بذل قصارى جهده لاقناع سلطان تركيا لكي يستولي على مصر ويسلم العراق على سبيل المبادلة كان لمحمد باشا الداغستاني العجوز والي بغداد تاريخ شائق فهو ابن اخي (شامل) البطل الجركسي. وقد أخذ حين كان شاباً الى بترو كراد وعينوه مرافقاً للقيصر. وأخبرني انه ذهب الى لندن في حاشية القيصر الكزاندر، ورأى الملكة فكتوريا. ولما اندلعت الحرب الروسية التركية في ١٨٧٧ – ١٨٧٨، ذهب الى القيصر وطلب الاذن منه لكي يذهب الى اسطنبول ويخدم السلطان، متعهداً الا يرفع سيفه ضد روسيا. وجعله عبد الحميد مرافقاً له واحبه كثيراً. وكان ذات يوم يسير خلف السلطان في قصر يلدز، وهرب اسدُ من قفصه وركض نحو السلطان الذي ولى هارباً

طلباً للنجاة بنفسه، فاستل الداغستاني سيفه وهجم على الاسد وأعادة الى قفصه وحبسه فيه. في ذلك المساء،اقنع الجواسيس، الذين كانت تعج بهم اسطنبول وما تزال، السلطان لكي ينفي الداغستاني لانه رجل خطر.

وقالوا له: إنه لا يخشى الاسد فهو لن يخشاك، ولعله يحبسك في يوم من الايام. "فنفي على الفور الى بغداد حيث وجدته في سنة ١٩٠٨. وعلى الرغم من توطد نظام تركيا الفتاة، فانه كان يتحدث عن السلطان بفيض من العاطفة وحين سألته كيف يمكنه ان يحترم رجلاً مثل عبد الحميد، اجابني لو ان سلطان تركيا، رئيس الدين والدولة، طلب منه ان يقتل نفسه، لخلا الى نفسه في الحجره المجاورة واغمد خنجره في قلبه. وقد اخبرني الجميع ان من الايسر عليه فعل ذلك من قوله.

وقمت بأول رحلة قصيرة لي نزولاً في نهر دجلة الى العمارة والعودة منها. واخذنا كثيراً من العينات من النهر وعشنا على الدرّاج والبط اللذين كانا كثيرين. ونبهنا الجميع ان نكون حذرين من العرب، لذلك كنا نتجول ومعنا حرس مسلحون. وقد وجدنا العرب يتسمون بالأحترام ويمكن

استرضاؤهم، ورأينا ان البدو لم يكونوا بنصف السوء الـذي رسموا به. وفي طريق عودتنا، وقد كنا علـى بعـد (١٥٠) ميلاً من بغداد فكرنا اننا يمكن ان نسـتغني عـن الحـرس، فذهب، اثنان منا، للتنزه في الريف وحدنا. ولم نكـن نحمـل سوى عصي المشي بايدينا. سرنا نحو ميل ثم لاحظنا عربيـاً مريباً بيده بندقية يتبعنا على بعد نحو (٢٠٠) ياردة وقبل ان يمضي وقت طويل رأينا الرجل يجثو على ركبة واحدة ويطلق طلقة متعمدة نحونا ولكنها اخطأتنا، ثم نهض العربي وسـار مسرعاً الى بعض الخيام عند الافق. وتبعناهُ ولحقنا به فـي الخيام وسألناه لماذا اطلق النار علينا فأجاب بهدوء انه اطلق النار علينا دفاعاً عن النفس لاننا اطلقنـا النـار عليـه اولاً. فقلت له انه يكذب لاننا لم نكن نحمل بندقية معنـا. فمـا ان سمعوا اننا لانحمل سلاحاً حتى هجم علينا نحو عشرين رجلاً مسلحاً وغير مسلح وبعض الصبيان مـن المخـيم واخـذوا ساعتينا وافرغوا جيوبنا بوقت قصير جداً لا يصـدق، حتـى انهم ارادوا ان يقطعوا إبزيمي حمالة سراويلي، واصروا على انهما من الفضة ولكنني اقنعتهم ان يصدقوا كلامـي انهمـا مصنوعان من الحديد.

وعدنا سائرين الى باخرتنا، ثم رجعنا الى المخيم بصحبة حارس قوي وجعلناهم يعيدون الينا ساعتينا ونقودنا التي اخذوها، ورفعنا تقريراً عن الامر الى اقرب مدير، وعاهد ان يستعيد سلسلتينا ان لم نخبر الوالي عن ذلك، فرفضنا وشكونا الى الوالي كل شيء، فاسترجعها لنا. وكانت السلسلتان مقطعتين اوصالاً غير انهما امكن اصلاحهما بسهولة. والقي القبض اخيراً على ثلاثة رجال وجلبوا الى بغداد، وقد تعرفنا مباشرة على ملامح الرجل الشرير الذي اطلق النار، وهو اخو الشيخ، في الوقت الذي ظل العبد المسكين يقسم انه هو الذي اطلق النار ثم سرقنا. العبد عمرهُ خمس وعشرون سنة، والمتهم خمس واربعون، والثالث اصغر قليلاً. وظهر الثلاثة في المحكمة لابسين ثياباً متشابهة تماماً، وكل منهم يروي الحكاية نفسها: "انا عمري تسع عشرة سنة، وصغير، وجاهل طائش". واصدر القاضي التركي حكمه عليهم بالسجن ثلاث سنوات. وبذلت جهدي من اجل العبد لانه الوحيد في المخيم الذي دلنا على باخرتنا، غير ان القضاة، رفضوا تصديقه.

الشتاء في بغداد قارس جداً والطريقة الوحيدة التي بوسعي ان اكون دافئاً في المخيم هي تزويد نفسي باغطية وبسط من فراء الغنم.

وقد اخبروني ان الرعاة يدفئون انفسهم في ايام البرد بالنوم ملتفين حول الغنم، هؤلاء الرعاة العرب كسالى جداً. توجد حول عقرقوف اراض شاسعة مزروعة باللفت (الشلغم) الكبير الحجم الذي يؤلف الغذاء الشتوي للاغنام في سنوات المحل (عدم سقوط الامطار). فكان الرعاة يستلقون على ظهورهم في الوقت الذي تستخرج الاغنام الشلغم قدر استطاعتها باسنانها واظلافها وقرونها.

في كانون الثاني ١٩١١، تساقطت الثلوج ثلاث مرات مما اصاب فرق المسح في خيامهم بعدم الراحة، غير ان روح الخير توجد دائما في حالات السوء، فقد استطاع المهندسون تسوية ومسح مساحات شاسعة من الاهوار التي تجمدت بشكل صلب، ولم يكونوا قادرين في الشتائين الماضيين على المشي فوقها. واخبرونا ان الثلج في بغداد لم يسقط بمثل هذه الكثافة والتواصل منذ ثلاثين سنة. وماتت مئات الالوف من اشجار النخيل في الواحات المحاذية للفرات وعلى الفرات

نفسه. وكانت بساتين النخيل المثقل سعفه بالثلج، ومن تحته تظهر الخضرة الغامقة باقواس رشيقة، جميلة بنحو غريـــب. وقد تضررت ثمار البرتقال كثيراً.

في آذار ١٩٠٩ انحدرت في نهر الفرات قريباً من كـــربلاء الى البصرة في زورق بخـــاري مـــع الكولونيـــل (رامـــزي) و(مستر فان أس) المبشر الاميركـــي فـــي البصـــرة وكـــان الفيضان قد بدأ، وعلى الرغم من سهولة السير السريع فـــي النهر حتى بداية اهوار النجف غير أنه من الصـــعب عبـــور الاهوار نفسها. وكان مجرى الفرات المار ببابل والحلة الذي احتله النهر منذ (٤٠٠٠) عام قد امـــتلأ بـــالغرين، وصـــار الفيضان يشق له ممراً في فرع الهندية ويملأ اهوار النجـــف برواسب من الغرين.

صار نهر الفرات يشق مجرىً جديـــداً فـــي وســـط هـــذا المستودع من الغرين الى منفذ الشنافية. وكـــان المســـتودع الغريني الجديد في الاهوار خصباً جداً ويزرعه العرب بالرز، مررنا بمخيم واسع للجنود الاتراك الذين كانوا يحاولون جمع ضريبة الارض من الفلاحين وقد كانت الملاحة ســـهلة مـــن الشنافية الى الناصرية، مقابل اور الكلدانيين، والـــى ســـوق

الشيوخ حيث كان النهر يسير في مجــراه القــديم، غيــر ان الزورق البخاري تحتم عليه، بعد سوق الشيوخ، ان يسير في حذر واحتراس في الاهوار. فقد حافظ الفرات علــى مجــراه القديم حتى قبل ثلاثين او اربعين سنة من سوق الشيوخ الى القرنة حيث كان يلتقي بدجلة، غير اننا وجدناه مشــتتاً فــي الارض وقد شق له ممراً جديداً الى كرمة علي، علــى بعــد نحو ستة اميال شمالي البصرة، حيث يلتقي الآن بدجلة، هذا، على أي حال، لقينا ماء الفرات العذب. وبعــد تجــوال عــدة ساعات في الاهوار وجدنا مجرى النهر القديم قرب الجبايش، وسرنا فيه الى القرنة. وقد كان الماء صافياً، ســبخاً، لــيس فيه شيء من الوحل، ويسير بسرعة قليلة.

مررنا بخمسة جسور من الزوارق، كانت كلها، عدا اثنــين عوائق لعبور النهر حيث جبيت منا مكــوس العبــور لفــتح الجسور امامنا على الرغم من عدم وجــود شــيء يفــتح. وجدنا في ما بعد جسرين آخرين من هذه الجســور الزائفــة على نهر دجلة ودفعنا المكوس مرة أخرى.

في اشد اجزاء اهوار النجف وحشية كان العرب يمتلكــون سيقاناً خارقة الطول وقد اندفعوا في الماء ليحاولوا ان يدنوا

من زورقنا ومهاجمته واستخلاص (البخشيش)، غير انهم لم يفلحوا قط. وفي الشنافية يستطيع المرء ان يرى نهاية التعلية الترابية التي شيدها الاسكندر الكبير لعزل الاهوار عن مجرى النهر. وفي اثناء عمله هاهنا، اصيب بحمى الملاريا التي مات بها. ولم نكن قادرين قبالة الوركاء على مغادرة النهر لرؤية الاثار لان البلد لم يكن مستقراً، ولم يجرؤ احد على حراستنا. واستطعنا في بعض الاماكن ان نرى بقايا الضفاف البابلية القديمة لنهر الفرات التي كانت عرضها دائماً نحو مئة قدم. وثمة قطاع ضيق من الريف على كلا جانبي النهر يزرع بالشعير ويروى بعدد من الدلاء الكبيرة التي تسحبها الثيران [الكرود]. ويبدو ان العرب هنا كثيرون جداً. وقبل ان نصل الناصرية مررنا بمخيمين واسعين منتشرين لعرب المنتفك. وفي الناصرية وجدنا المتصرف المسؤول غير انه لم يجرؤ على الانتقال خارج المدينة مالم يصحبه ممثل من شيوخ المنتفك. واطلقت النار علينا بين الناصرية وسوق الشيوخ ثلاث مرات من عرب على ضفة النهر، غير انها أخطأتنا لحسن الحظ وقذفونا بخرادق [رصاصات صغيرة] ولكنها لم تؤثر فينا. ولما وصلنا سوق

الشيوخ شكوت الى القائم مقام الذي اخبرني انني اخطأت خطأ عظيماً لعدم اصطحاب ضابط شرطة تركي معي، وانه سوف يرسل احدهم معنا حتى البصرة. وبعد ان سرنا ساعتين في الطريق لاحظت اننا لم نكن نرفع العلم التركي الذي كنت احرص دائما ان اعرضه للعيان. ولما سألت الحرس لماذا لم يرفعوا العلم، قالوا ان ضابط الشرطة القاه على ظهر الزورق، وحسناً فعل وإلا أطلق عرب الاهوار النار علينا. كانت هذه الاهوار السفلى مرعى لقطعان عظيمة من الجاموس التي تسير في مياه عمقها قدمين او ثلاثة اقدام، في الوقت الذي يستعمل العرب مشاحيف كبيرة. وكان جميع العرب في الجبايش يركضون في شكل حلقات وبنادقهم مرفوعة في الهواء فوق رؤوسهم ويهوسون [يهتفون] ويردسون [يضربون الارض باقدامهم]. كان ذلك تمهيداً لشن غارة على قبيلة مجاورة. وكانت الحكومة التركية تشجع هذه الحروب بين القبائل بكل وسيلة تستطيعها. وفي القرنة التقينا نهر دجلة وخرجنا من ماء الهور الصافي لنهر الفرات العريق الى مجرى النهر الآخر الموحل نسبياً. ويعرف مجرى نهر دجلة ونهر الفرات القديم بشط العرب، ويبلغ طوله من

القرنة الى الفاو (١٨٩) ميلاً، ويعتقد ان النهر يروي عشرة ملايين نخلة على ضفافه التي تكون اعظم بساتين النخيل في العالم. وتقع جنة عدن الحقيقية في مزارع معينة حيث يرى المرء مساحات واسعة من برد الشتاء الشديد وحرارة الصيف اللافحة وتزين اشجار الكروم الوارفة ما بين النخيل، وتتدلى منها عناقيد العنب الارجوانية الكبيرة. اشجار الحياة هذه تحمي جنة عدن، وثمرة الكرم الممنوعة التي قطفتها حواء حباً للاستطلاع، سببت لها الخراب، في الأهوار، عند ملتقى النهرين العتيقين دجلة والفرات في جوار القرنة، كانت توجد جنة عدن السومريين التي وصفها واحد منهم:

تنمو في أريدو كرمة داكنة

زُرعت في مكان جميل

يمتد ظلها الى عريشة رائعة بهية،

لا يدخلها انسان.

يقيم فيها إله الشمس وإله الشرق الجميل،

يحتضنها النهران حيث يلتقي الماءان.

وقد نشأت اقدم المستوطنات في البقعة الواقعة تحت ماء الفرات الاكمد الصحي:

" كان النهر يجري واسعاً كالبحر،
حين انشئت يريدو، وحين بنيت به – ساكيل،
به – ساكيل في وسط الماء العميق العذب،
حيث يسكن الاله صاحب المقام البهي،
وضع مردخ القصب في وجه المياه،
واقام ضفاف التراب التي يحميها القصب،
لكي يجعل الالهة تسكن في
المكان الذي تهواه قلوبها".

بانشاء الضفاف الترابية في الهور الضحل الـذي يخترقـه النهر، استصلحت مساحات من الارض وبدأت زراعتها. كان الري بالماء العذب سهلاً من ماء اعلى من مستوى الارض. ان سوق الشيوخ اليوم تشبه ذلك كثيـراً. ومـا ان يسـتتب الامن في هذه المناطق، حتى يزداد استصلاح الارض. وقـد قدرت كلفة اعمال الاستصلاح في اقسام مقـدارها ٥٠٠و١٢ إيكر كما يأتي:

ضفة كاملة لكل ايكر ـــــ ١٠و١ باون
قناة تصريف مياه ــــــ ٤و٠
مبان ومنشآت ــــــ ٨ر٠

وحدات ضخ تنصب في الموضع ـــ ١٨و١

٠٠و٤ باونات

وستكون نفقات الادامة خمسة شلنات لكل ايكـــر، ويوجـــد اكثر من (٠٠٠و٢٥٠) ايكـــر يمكـــن استصـــلاحها بكلفـــة (٠٠٠و٠٠٠و١) باون بما يساوي (٤٠) باوناً لكل إيكر، ان مثل هذه الاستصلاحات لا تحتاج الى سداد واشغال هندســية مهمة من أي نوع. وان من السهل العمل في (٥٠٠) ايكـــر كالعمل في (٥٠٠و١٢) ايكر غير ان الكلفة ستكون اكبر.

في زمن الخلفاء الاوائل، كانـــت (٠٠٠و٥٠) ايكـــر مـــن الارض، التي يغمرها الماء العذب اليـــوم، تغطيهـــا غيـــاض النخيل والحدائق والبساتين، وكانت تعد فـــي ذلـــك الزمـــان واحدة من اربع جنان ارضية. ومن اليسير ان نفهم مما كتبه المؤرخون العرب كيـــف انجـــزوا استصـــلاح هـــذه الارض. فالفرات يلتقي بدجلة في القرنة. وقد حفروا نهراً من الفرات الى الزبير التي كانت تعرف بالبصرة وتنحني هـــذه القنـــاة بزاوية قائمة في الزبير وتتجه بخط مستقيم نحو شط العـــرب

في مكان مجرى نهر العشار اليوم الى البصرة الحديثة التـــي كانت تعرف آنذاك بالأبلة – هذا الجدول العمودي الذي كـــان يعرف بـــ (فيض) البصرة ويزود الاراضي بمياه الري، يدين بوجوده الى مبادرة الامير الحجاج، اول حاكم عربـــي علـــى البلد، وتجدر الاشارة الى (مجلة الجمعية الاسيوية الملكيـــة)، لسنة ١٨٩٥، الصفحتين ٧٦و ٢٥٥ حيث يرد وصف العراق وبغداد الذي كتبه نحو سنة ٩٠٠ م ابن سرابيون وقد حقـــق النص وترجمه [الى الانكليزية] وعلـــق عليـــه (كـــاي لـــو سترانج) من مخطوطة مكتبة المتحف البريطاني.

ان ما ذكرته آنفاً يشير الى الارض المنخفضة المغمـــورة بالمياة، بين سوق الشيوخ وكرمة علي. هذا الهور الضـــحل الذي يغطي (٦٠٠و٠٠٠) ايكر، يعلو قاعة بنحو ثلاثة أقـــدام فوق مستوى سطح البحر. ويتصل بشط العرب بفتحة واسعة جداً في كرمة علي شمالي البصرة. وخلال هذه الرقعة المائية يشق نهر الفرات في الوقت الحاضر مجراه ليلتقـــي بنهـــر دجلة في كرمة علي نزولاً مع مجرى الماء بالبصرة والزبير ورؤوس خور عبد الله، يمتد حـــزام مـــن الارض المرتفعـــة نسبياً بنحو خمسة اقدام فوق مستوى سطح البحـــر ويمتـــد

الى (٥٠٠و٠٠٠) ايكر. وبما ان دجلـــة والفــرات اللـــذين يخترقان هذه الاهوار التي تغطي (٢و٥٠٠و٠٠٠) ايكــر لا يمكن لهما ان يكونا قد جمعا هذا المقدار من الطمـــى، فـــان الارض المرتفعة نسبياً قد كونها نهر الكارون بنحو واضـــح. في الايام القديمة حين دخلت المياه المشتركة لدجلة والفرات الخليج من الرأس الغربي لخور عبد الله ونهر الكارون مـــن رأسه الشرقي فان نهر الكارون اجتاح هذه الاراضي وطـــرح هذه الرواسب. الكارون، على خـــلاف دجلـــة والفـــرات، لا يخترق اهواراً، بل ينحدر من التلال الايرانية بسرعة كبيـــرة ويحمل ماء موحلاً الى الخليج؛ وهو قادر اليوم، كما كان في الماضي، على تكوين مثل هذه الدلتا.

ان جزءاً من الـــ (٥٠٠و٠٠٠) ايكر تغطيه غياض البصرة الموجودة حالياً. وان جميع هذه النخيل تســـقى بجـــداول او نهيرات كثيرة تخرج من شط العرب بزاوية قائمـــة. فيرتفـــع الماء ويجري في الانهار ويرجع بفعل المد الذي يرتفع عشرة اقدام من الخليج. ان جداول الري الموجودة حالياً تأخذ ماءها من جهة واحدة فقط وهي التي على النهر، وتعزى صـــعوبة توسيع الري الى هذه الحقيقة. فالنخل يتلقى ماءه من المـــد

المرتفع، وتمتد الزراعة فقط الى حيثما يمكن ان يصل الماء. وقد تتبعت في كثير من الاحيان ماء احد الانهار، ورأيت انــه يصل مجموعة اشجار النخيل الهزيلة من العطش لحرمانهــا من الماء لانسحاب المد الذي كاد يصل اليهــا. ان القنــوات التي تأخذ ماءها من كلا الطرفين هي التي تعالج هذا النقص. وان الاعمال التي اقترحتها موصوفة في كتــابي (ري بــلاد الرافدين) الذي ذكرته آنفاً. فاذا شيدت سدة في كرمة علــي، فان من المفيد تقدير كلفة جدول يمر بالزبير الــى الكويــت. ماء الفرات في الزبير لن تكون فيه رواسب تذكر ويمكــن أن ينقل بجدول بانحدار قليل جداً.

غادرنا الكولونيل رامزي في البصرة الى بغداد على احــدى بواخر شركة لينج. وكان العرب قــرب العمــارة مســتعدين للحرب واطلقوا النار على الباخرة. فذهب الكولونيل رامــزي الى مقصورته، وانحنى تحت مضجعه ليأخذ بندقيته، فــرأى خادمه يزحف تحت المضجع الآخر. ولما ســأله مــاذا كــان يفعل، قال له انه ليس مأموناً ان تكون على ظهر الســفينة، فزحف الكولونيل تحت المضجع كما كان يفعل الخادم!

استطعت ان اغادر البصرة الى بغداد على آخر باخرة قطعت دجلة بعدة اشهر. وكان بنولام والبو محمد بين الكوت والقرنة على دجلة قد انتفضوا ضد الاتراك وكانوا يطلقون النار على البواخر السائرة في النهر. يبلغ عرض نهر دجلة قرب قلعة صالح، جنوبي العمارة، مئة ياردة، وقد اقام العرب أسداداً وحفروا خنادق على النهر حيث احتموا فيها. كانوا جميعاً مسلحين ببنادق مارتيني - هنري، وكانوا يطلقون النار بمدى (٢٠٠) ياردة. ولما كانوا لايخرجون رؤوسهم من ملاجئهم فانهم كانوا يطلقون النار في الهواء. ولهذا فان الرصاص كان يعبر فوقنا.

في الخامس من نيسان كانت الباخرة (بغداد) التي تصاحبها بواخر اخرى وزورق مدفعي صغير، تحمل في ما بينها (٦٥٠) جندياً من بغداد وتتقدم نازلة نحو العمارة، والتحق بهم نحو (٨٠٠) من العرب الاصدقاء الموالين، وهاجموا نحو (٢٠٠٠) عربي قرب قلعة على بعد نحو (٣٥٠٠) ياردة من النهر. كان معنا مدفعان من نوع كروب، ويبدو اننا من شروق الشمس حتى الخامسة عصراً كنا نسوق الجمع امامنا. كنا مسلحين ببنادق موزر جديدة. وكانوا هم مسلحين

بمارتيني هنري قديمة، ولم توات العرب أي فرصة. وقد احرق العرب الذين الى جانبنا فريقين، وطردوا الاعداء من ضفة النهر اليسرى، وجلبوا بعض الخيل والاغنام وغنائم اخرى، وبدأ رجالنا يعدون طعام العشاء على الشاطيء، وعلى حين غرة في الساعة الخامسة عصراً هجم نحو (٥٠٠) عربي حاملين عشرين راية، ورافعين بنادقهم عالياً فوق رؤوسهم، واندفعوا دونما تردد على جنودنا الذين فقدوا رباطة جأشهم وهربوا، لأن الخيالة لا يمكن ان يكونوا اسرع منهم. كان جميع العرب يحاربون حفاة، عراة، الا من قطعة قماش حول عوراتهم. واطلق رجالنا النار بشدة، واصابوا الارض على بعد خمسين ياردة، وظلوا يصيحون ان هذا هو رصاص العدو. قتل منا رجلان وجرح عشرون، ولا ريب ان العرب الذين هجموا علينا قتل منهم عشرون وجرح اربعون، غير ان التقرير الرسمي يذكر (٦٠٠) قتيل و (١٠٠٠) جريح. انا لم أشاهد مثل هذا الذعر المفاجيء قبلا، وبدا كأن العرب اوشكوا ان يصعدوا على ظهر سفينتنا، غير ان شجاعتهم خانتهم فتراجعوا. كان عليّ وعلى القبطان (دين) في السفينة (بغداد) ان نقفز الى الشاطيء ونفك الحبال لكي

لا يهجم الاعداء على الباخرة. وفي اللحظة التي ابتعدنا عن الشاطيء اراد الجنود ان يشغلوها لنا ويسيروا بها ولكن القبطان رفض ان يتحرك قبل ان ينقل اخر التائهين وآخر رجل جريح الى ظهر الباخرة، واخيراً سحبنا، انا وهو، الاوتاد ونقلنا كل شيء على الشاطيء لكي يبدو اننا تراجعنا ولم نهرب. وابتعدت السفينة الاخرى من دون ان تأخذ المتخلفين والجرحى ووجدنا لهم متسعاً عندنا، وقد دعوا بالبركة على رؤوسنا. وتصرف الزورق المدفعي بطريقة جبانة حتى انه لما عاد الى العمارة، القى مراسيه في وسط النهر واختبأ جميع الجنود والبحارة على ظهره لان العرب الموالين اقسموا انهم سوف يرمون كل واحد من النوتية الذي ينزل الى الشاطيء. كانت بنادق (الموزر) التي بحوزتنا ممتازة، ويمكن ان ترمي الى مسافة (٢٠٠٠) ياردة، مع انني لم ارم ابعد من مدى (٢٠٠) ياردة لانني لست بارعاً في الرماية. وقد اطلقت ست عشرة رصاصة فوق رؤوس العرب المنحنية، واني واثق من انني لم اصبْ احداً لانهم نظروا الخطة متفحصين واطلقوا النار في الهواء، واختفوا. وانهم لم يصيبونا بأذى لانهم لم يصوبوا.

وخلال الـ (٤٠٠) عام التي احتل فيها الاتراك هذا القسم من الوادي لم يعطوا أي عربي سنداً لتمليك الارض التي يزرعونها، بل تسلمها الباشوات والبيكات الاتراك، ومنح السلطان عبد الحميد سندات تملك مئات الالاف من الايكرات، ولكن لم يتسلم أي بدوي او عربي أي سند. وفي اثناء السنة الاولى من مكوثي في بغداد حدثت امور مثيرة كثيرة لأن (تركيا الفتاة) قالوا انهم سوف يعالجون اخطاء الماضي ويمنحون العرب سندات تمليك. واراد الشيوخ ان تُسجل السندات باسم العشائر أو الافخاذ، في الوقت الذي اراد المزارعون تسجيلها باسماء الافراد، وانتهز الاتراك فرصة هذا الخلاف لكي لايعطوا احداً أي سند تمليك. ويريد العرب في الدلتا ان يستقروا ويزرعوا الارض لان اعدادهم ازدادت كثيراً حتى انهم لم يعودوا يستطيعون ان يحيوا حياة الرعاة، غير ان سياسة تركيا هي دائماً استبدال الشيوخ واخذ رشاوي باهظة من الشيوخ الجدد، وتأليب عشيرة على عشيرة حتى اصبح البلد فاقداً استقراره. فكل عربي يحمل بندقية على كتفه، ويجد شراء بندقية وعتاد ارخص من دفع الضرائب. وكان العرب يخشون ناظم باشا ويطيعون اوامره

في اثناء السنة التي كان فيها والياً علــى بغــداد، وصـــاروا يتجولون وهم غير مسلحين. وقالوا انها اول مــرة يتجــول فيها العرب غير مسلحين منذ اجيال.

اما بالنسبة الى المهندسين في سدة الهندية فقد كــان مــن المديح جداً ان ينفذوا العمل وينظموه مع عمـــال لا يحملــون السلاح. وقد كان العامل سابقاً الذي يحمل شاخص التســوية يعلق بندقيته على كتفه، يراها المهندس خلال الناظور كلمـــا رصد به، في الوقت الذي يجب ان يقيس المهنــدس اعمـــال العامل الترابية. فانه يسير متصلباً وهو يحمل بيــده بندقيتـــه المحشوة بالرصاص. وفي احدى المنازعات بــين جماعـــات العمال اطلقت احدى الجماعات النار على الاخرى وقتلت ثلاثة رجال.

حين رأيت اهل البلد في الفرات الاسفل ودجلة الاسفل في ولاية البصرة معادين للاتراك كثيراً جداً، خشــيت ان ارســل المهندسين الى هناك وذكرت الامر الـــى (مســتر فـــان أس) المبشر الاميركي. فقال انه سوف يحصل على جواز مـــرور من عرب المنتفك الذي يضمن سلامة فرق المسح في الولاية كلها، وقد كان صادق الوعد. ومســـح المنطقـــة فـــي خـــلال

موسمين، ولم يضايقنا احد قط. وصار الوالي يغار من تحركنا بحرية في أماكن لم يسمح لاحد من الاتراك بالذهاب اليها، وأصر أخيراً على تركنا البلاد قبل انتهاء المسح، بحجة الخطر على حياتنا، غير انه في الحقيقة كان يظن اننا كنا نتآمر، فأصرّ على ترك الخطط والتسوية غير كاملة. ولعل ذلك كان حسب اوامر من اسطنبول.

كان ناظم باشا اقوى والٍ شهدته بغداد ولم يكن على وفاق مع (جمعية الاتحاد والترقي)، ولما ارادوا نقله الى بغداد، اقنعوه بعد إلحاح ان يقبل ولاية بغداد، فاصر على نشر سلطاته بعيداً. وقبلت جميع طلباته، وتوجه الى بغداد بملاك قدير من الموظفين. ونزل نهر الفرات قادماً من حلب، في الوقت الذي كنت صاعداً النهر، فالتقيته قرب دير الزور. ورأيت عدداً من الرجال في غضب شديد ينصبون خياماً ويجمعون حطباً للنار وعلفاً في مكان ناء، بعيد عن أي خان للمسافرين، واخبروني انهم كانوا يهيئون مخيماً لوالي بغداد. التقيت بالباشا بعد ثلاث ساعات، وهو تركي قوي البنية، قصير، شديد العزم. ولما سألته لماذا اختار مثل هذا المكان الغريب لمخيمه، اجاب انه جندي وقد خطط رحلته قبل

ان يبدأ، واعتزم الالتزام بخط رحلته على قطع عدة اميال كل يوم، بصرف النظر عن الخانات. ولما كان الفرات في حالة فيضان، وقطع الطريق في اماكن كثيرة، فانه ضاعف عمل اتباعه في المخيم الى ضعفين او ثلاثة اضعاف. واخبرني انه يتمتع بسلطات واسعة جداً، ويعتزم ان يترك اثره في العراق. ولدى عودتي الى بغداد وجدت ان (تركيا الفتاة) بذلوا قصارى جهدهم لوضع العراقيل امامي للعمل معه. وكان لدينا اعتماد مصرفي مشترك بمبلغ (٠٠٠و٢٥٠) باون للاعمال العامة في ما بيننا، وكان يجب توقيع جميع الصكوك بتوقيعنا نحن الاثنين. وما لم يساير بكل وسيلة ويسمح له بأخذ ثلاثة او اربعة اضعاف حصته من المال فانه يرفض التوقيع لتصديق صكوكي. وحتى اذا وقع على الصكوك كما ينبغي فان الدفتر دار [امين الصندوق] يضع مختلف ألعراقيل لصرف صكوكي، في الوقت الذي يسحب الباشا نقوده بسهولة تامة. وقد توليتُ بدء الاعمال في سدة الهندية بناء على اقتراح السفير البريطاني، ولكن حين نشأت المصاعب في مسألة دفع المال، اخبرتني السفارة انهم لا يستطيعون مساعدتي لانهم كانوا منشغلين في تأمين امر لبناء بارجتين

حربيتين مدرعتين في انكلتره وكـــانوا يركـــزون اهتمـــامهم عليهما. العالم الدبلوماسي هو العـــالم الدبلوماســـي، ولكـــن لحسن الحظ فان الفرنسيين اقرضوا مبلغ (٠٠٠و٢٥٠) باون للانشاءات العامة، ولما ناشدت سفيرهم ضمن ان يدفعوا لي. وقد اخبرني التجار الذين طلبت منهم المواد انهـــم يعـــدّونني مسؤولاً شخصياً عن دفع الاموال، واذا لم يدفع الاتراك فانني سوف اقاضى امام المحاكم في القاهرة.

في ايلول وتشرين الاول، تفشت الكوليرا [الهيضة] في كـــل مكان، فانتهز الاتراك الفرصـــة الممتـــازة لمضـــايقة جميـــع الناس. فوضع العراق الوافدين من جميع دول العـــالم تحـــت الحجر الصحي، ووضعت كُل مدينة وقرية كلُ مدينة وقريـــة اخرى ايضاً تحت الحجر. واذا اراد المرء الانتقال من بغـــداد الى الضواحي، كالكاظمية، فانه كان يوضـــع فـــي المحجـــر خمسة ايام، ثم خمسة أيام اخرى عند العودة. وكان الـــزوّار الايرانيون المساكين تسلب منهم جميع نقودهم بالاحتيـــال او بالتهديد. وقد وضع احد المهندسين التابعين لي خمسة ايـــام في المحجر في البصرة عند مجيئه من انكلتره، وخمسة ايام اخرى للوصول الى بغداد، وخمسة ايام للخروج منها، ولـــو

أنه جاء متأخراً اسبوعين لوضع خمسة ايام اخرى في سدة الهندية، لان الجانب الايمن من السدة وضع الجانب الايسر تحت الحجر. وقد خفض الوالي اجور الاطباء الى النصف، قائلاً انهم اصبحت لديهم فرص ممتازة لزيادة مدخولاتهم.

وفي اثناء غدائي مع الباشا اخبرته ان نحو مئة جمّال سوف يغادرون بغداد الى السدة حاملين السمنت وانهم سوف يتملصون من نطاقك الذي ضربته على المدينة في تلك الليلة. فاشار الى مرافقه الذي تلقى اوامره وغادر الحجرة. وفي صباح اليوم التالي ارسل مرافقه الى دائرتي ليستعلم إن كانت الجمال قد غادرت، فاخبرته ان اصحاب الجمال القوا السمنت في الشوارع واختفوا هم وجمالهم. وبعد ايام قلائل كان مئة وخمسون حماراً تحمل سكك حديد في طريقها الى هيت، غير ان سكك الحديد احتجزت في محجر الفلوجة، وبما ان السمنت او السكك لا يمكنها ان تدفع (البخشيش) فانها وضعت في المحجر، في الوقت الذي رشا اصحاب الحمير الحرس وهربوا.

وبعد ان اشتغلنا ستة أشهر في سدة الهندية وثق بنا العمال العرب ثقة ضمنية، وكنا ندفع لهم بالصكوك التي

تصرف في الهندية او في الحلة. وقد وفر ذلك علينا كثيراً من المشكلات التي لا حدود لها، لاننا لم نكن نستطيع دائماً ان نكون واثقين من تطمين كمية كافية من المال التي تدفع لعملنا. وازجينا التهنئة لانفسنا على هذا الامر ولكن حين سمع ناظم باشا عن ذلك اصرّ فوراً ان يكون الدفع نقداً. وكان الحصول على النقد من (الدفتر دار) صعباً جداً بحيث كان يتحتم عليّ في بعض المناسبات ان احصل على مبلغ (٣٠٠٠) باون بالبرقية من مصرفي في القاهرة ولندن لكي تظل الاعمال متواصلة. وكنا قد تسلمنا دوبتين [زورقي حمل] والف طن من الفحم لنقل المواد من البصرة الى السدة ولكن الوالي صادر كلتا الدوبتين والفحم بحجة حاجة الجيش اليها. وقد وافق الوالي على مد خط سكة حديد بعرض قدمين وطول عشرين ميلاً في المنطقة التي يقترب فيها دجلة والفرات من بعضهما بعضاً ولكن اسطنبول رفضتها، لانها تتعارض مع سكة حديد بغداد في السمتقبل. وكان يجري التدخل في جميع تفاصيل العمل، واصبحت المضايقات نظامية حتى انني على الرغم من العقد الذي ابرمته مع الحكومة التركية لمدة خمس سنوات، تركت العمل بعد سنتين ونصف.

وطلب وزير الاشغال العامة، معروفاً، ان اقول انني تركت العمل بسبب صحتي وليس بسبب أي مصاعب اخرى واعتقد السفير البريطاني ان من الغرابة انني لم استطع مواصلة العمل مع الاتراك في الوقت الذي كان مفوض الكمارك، (سير ريجار) يجمع المال، وكانت الـ (٢٥٠و٠٠٠) باون التي تفترض سنويا لأجل منشآت الري في العراق، كانت تعدها السلطات العسكرية فريسة شرعية. وحين اوقف ناظم باشا الاعمال في منخفض الحبانية، على الرغم من انها كانت مفتاح نظام الري على الفرات، فانه قدم العذر عن نفسه بقوله ان جنوده كانوا بلا طعام في الوقت الذي لا يمكن لهذه الاعمال ان تدر شيئاً بعد بضع سنوات.

وسوف يُذكر ناظم باشا في بغداد ومحاولته شق شارع عريض في وسط المدينة. ان الشوارع في بغداد ضيقة بشكل يثير السخرية، وفي اكثر الاماكن لا يمكن لعربتين ان تجتاز احداهما الاخرى. وقد وضع الباشا نفسه العلاج لذلك بتعريض الطريق العام الموجود حالياً. وكان المال الذي لديه قليلاً، فضلاً عما صادره مني، فاستخدم قانوناً تركياً قديماً يسمح للسلطات اضافة ثلث الطريق على كلا الجانبين من

دون دفع تعويضات بعد ازالة المباني القائمة وبدأ بهدم واجهات بيوت اغلب الانكليز البارزين وأغنى الرعايا البريطانيين في ذلك المكان. فقد يكون المرء جالساً يفطر في غرفة الطعام ويرى السماء الزرقاء على حين غرة، حيث كان قبل بضع دقائق جدار البيت الامامي قائماً. وقد اخبرني بريطاني ثري انه لم يصدق عينيه حتى وجد ان غرفة الاستقبال في بيته قد اقتطع من واجهتها ست أقدام، حينما كان جالساً ينظر اليها. ولما اسرع الى الوالي واشتكى لديه، قيل له ان الجدار الامامي كان آيلاً للانهدام، وهو مصدر خطر على المارة ويجب ان يبنى بعد ارجاعه ست اقدام الى الوراء. ولما اصر على ان بيته من امتن (اقوى) البيوت في بغداد، قال له الوالي انه ان لم يكن مقتنعاً بالست اقدام فان مدير البلدية سوف يدرس قضية بيته ويحكم بعدم صلاحيته كله. ولما كانت واجهات بيوت بعض الانكليز قد هدمت فانه عاد الى بيته وبدأ ببناء الجدار على تخطيط الشارع الجديد.

وهدم السياج الخارجي لاحد الجوامع. وادرك المواطنون انه لايمكن لشيء ايقاف تنفيذ الطريق، وقد نفذ ناظم باشا، الذي درس في فرنسا، ولم يكن صديقاً للالمان. نفذ طريقه

خلال حديقة القنصلية الالمانية، وفـوق سـاحتهم للتـنس، وعندما حاول حارس القنصلية ايقاف العمل لم تبال به مفرزة من الجند وكفّته جانباً. القنصل البريطاني العـام فـي بغـداد يعرف بالمقيم البريطاني، وعنده بيت رائع وحديقة جميلة جداً وثكنة حرس لسبعين من السباهي [المجندين الهنـود] فـي الوقت الذي كان الزورق المدفعي (كوميت) راسياً امام الـدار في نهر دجلة. دائرة البريد البريطانية هي الدائرة الوحيـدة الموثوق بها التي يعول عليها في جميـع انحـاء العـراق، ويستعملها كبار الموظفين حين يتوقون الى وصول رسائلهم الى غايتها المقصودة، وقد خطط ناظم طريقه بخط مسـتقيم خلال الحديقة وساحة تنس المقيمية البريطانية ووضع علمين لتحديد الاستقامة، احدهما خارج الجدار الجنـوبي، واعتـاد الناس في بغداد ان يغادروا منازلهم كل مساء ليروا إن كـل عمال الوالي تحت إمرة جودت باشا سيهدمون جدار المقيمية البريطانية. وعلى زاوية قائمة على هـذا الشـارع الجديـد، خارج الجدار الشمالي للمقيمية يوجد شارع آخر بعيـد عـن النهر، يقع عليه دار نقيب بغداد ذو الشـرفة المطلـة عليـه (نقيب بغداد هو اعلى منصب اسلامي سني بعد شريف مكة).

وقد اعتاد النقيب الجلوس في شرفته والتفرج على هدم جدار المقيمية. وابرق المقيم البريطاني الى الهند لتلقى الأوامر، فاخبروه بتوجيه قنبلة ومقاومة محاولة لتهديم الجدار بكل قوة. وما ان سمع الوالي ذلك حتى ادار شارعه بزاوية قائمة، مما ادهش الناس جميعاً، لهدم شرفة بيت النقيب، وبقي منظر الشارع العام في بغداد طوال اربعة اشهر كأنه شارع في مدينة قصفتها القنابل لأنه نادراً ما كان جزء من بيت من البيوت لم يهدم ويرسل عموداً عظيماً من الغبار نحو السماء. ولما توسع الشارع فان ناظم كساه بالحصى والقير. وبعد أن غادر، فان الوالي الجديد رفض التبليط وسمح لابناء المدينة حفر الشارع وازالة الحصى والقير. هكذا كانت تركيا.

الحكاية التي سأرويها عن ناظم باشا سوف تعيدنا الى ايام هارون الرشيد. قبل ان يصبح ناظم والياً على بغداد بسنوات كثيرة سجنه السلطان عبد الحميد، ولولا اخلاص خادمه الارمني لمات جوعاً، فقد كان الخادم يكسب المال بعمله في المدينة ويأتي بالطعام لسيده. فجلبه ناظم معه الى بغداد وصار متعلقاً به. وكانت تعيش في افضل بيوت بغداد فتاة ارمنية في الثامنة عشرة من عمرها. كانت بارعة الجمال،

واسعة الغنى، ويتيمة. وكان جميـــع الارمـــن الشـــباب فـــي الامبراطورية التركية يودون طلب يدها، غير أنهـــا كانـــت لا تريد احداً منهم، فأرسل الوالي اليها في قصره واخبرهـــا ان حياتها بدون حام يصونها قد يسبب لها مشاكل كثيرة، ولكنها اذا تزوجت واحداً من ابناء بلدها في منزله، فانه سيكون لها زوج من الطراز الاول، ويوليها حمايته. فقبلت غير انها لما وصلت الى بيتها ارسلت الى ناظم تخبره انها تفضل ان تبقى عازبة. فقال لها الوالي: "ستبقين اذن عازبة. طول حياتـــك" ووضع طوقاً من الجند حول بيتها، ومنعوها مـــن مغادرتـــه، فهربت ذات يوم الى الدير الفرنسي بثياب راهبـــة فرنســـية، وذهب الجنود المطوقون الى منزلها الجديد. وبعد بضعة ايام هربت في زي راهب فرنسي. والتجأت الى سفينة من ســـفن شركة (لينج) وابحرت الى البصرة تحت العلـــم البريطـــاني. فاحاطت زوارق مملوءة بالجنود بالباخرة في البصرة، غيـــر ان الفتاة هربت راكضة على ظهر الباخرة وقفزت الى سفينة القنصل الروسي محتمية بالعلم الروسي، فاوصـــلها القنصـــل الروسي سالمة الى الباخرة الهندية البريطانية، ونزلـــت فـــي بوشهر في ايران حيث استقرت موقتا. ولم تمر اشهر طويلة

حتى عزل ناظم باشا وصدر له الأمر بالعودة الى اسطنبول. وخشي ان يعود الى اسطنبول بطريق نهر الفرات فلعله يسقط من جانب المركب بحادث من الحوادث، لذلك بقي حبيس بيته على ضفة نهر دجلة. وفي صباح باكر جاءت باخرة من بواخر شركة لينج في نهر دجلة وتوقفت قبالة بيت الباشا واخذته على ظهرها ورحلت الى البصرة حيث اسرع على ظهرها الى زورق القنصل الفرنسي واخذوه الى زورق بريد الهند البريطاني الذي نقله الى بومبي.

ويولي عرب العراق اعظم الاحترام لامانة ناظم باشا ويقولون بطريقتهم المثيرة للعاطفة انه كان والياً يذهب الى كربلاء قط للزيارة والصلاة فيها. فلم يذهب أي والٍ الى كربلاء وعاد خالي اليدين من اغنى مرقد في العالم. وفي طريقه على نهر دجلة ابدى العرب استعدادهم لوضع (١٥٠و٠٠٠) رجل تحت تصرفه اذا اراد قيادتهم ومساعدتهم في القاء النير التركي عن كاهلهم كما فعل محمد علي وحرر مصر، غير انه كان مخلصاً لاسطنبول، وعاد اليها، وقتله حزب (تركيا الفتاة) كما يعلم جميعنا، وربما قتله انور باشا بيده.

ويمكن لشخص متفرغ لمثل هذه الدراسات ان يكتب حكاية شعبية عن التركي في بلاد الرافدين مبيناً كيف جـاء اليهـا، وماذا فعل فيها... التركي في بلاد الرافدين غريـب تمامـاً، يكره البلد والبلد يكرهه. ولا يوجد اكثر من الف وخمس مئة تركي مقيم في دلتنا دجلة والفرات. ويمكن ان أصـف مـاذا فعل، بالاستشهاد بالفقرة الاخيـرة مـن تقريـري المرفـق بمشروع ري العراق الذي قدمته فـي نيسـان ١٩١١ الـى الحكومة التركية.

" الرحلة البحرية التي قمت بها قبل مجيئي الى هـذا البلـد كانت من الخرطوم صعوداً في نهـر النيـل الـى البحيـرات الاستوائية العظمى. في هذه المنطقة الوعرة الباعثـة علـى اليأس التي وصفها الرحالة بانها جهنم رطبة، ملئـت فخـراً بالتفكير بانني انتمي الى جنس من الناس، يكـافح ابنـاؤهم حتى في هذه القفار المائية القاسية بوجه ألف أمر محبط في تقديم اشجار غابة جديدة ومنتجات زراعية جديدة ويحسّنون الى حد ما ظروف حياة الناس العراة. والبانسين. كيف لي ان اشعر في اختراق الصحاري والمستنقعات التي تمثـل اليـوم ماكانت في العصور الغابرة اغنى واشهر اصقاع الارض، اذا

ما فكرت بانني كنت سليل جنس من البشر وضـــع الله فـــي ايديهم طيلة مئات السنين مصائر هذا البلد العظيم، وان أبناء بلدي لا يمكنهم ان يقدموا وصفاً افضل لادارة امور حيـــاتهم من عرض نهرين عظيمين يجريان بـــين صـــحارى ليبـــددا مياههما في البحر طوال تسعة اشهر في السنة، ويدمران كل شيء في طريقهما في اثناء الشهور الثلاثة الباقية؟ ولا يمكن لأي جهد تبذله تركيا ان يزيل الخزي والعار لما حـــل بهـــذه الاراضي الموات الجافة التي يرتفع صراخها الى السماء".

ان الولاة في الولايات المتحدة التركية تدفع لهـــم رواتـــب ممتازة، غير ان المـــوظفين الآخـــرين، ولا ســـيما مـــدراء النواحي، لا تدفع لهم رواتب جيدة فان مـــدير الناحيـــة فـــي العادة يتلقى (٥و٤) باونا في الشهر، علـــى الـــرغم مـــن ان نفقاته لا تقل عن (١٢ الى ١٦) باوناً في الشهر ابداً. وكانت النتيجة ان الاسم التركي يجر في الاوحال فـــي كـــل مكـــان. وحين كنت في اسطنبول، بعد ســـنتي الاولـــى فـــي بغـــداد، التمست الوزراء ان يرفعوا رواتب الموظفين الصغار، لانه لا يمكن لاي امبراطورية ان تبقى في قيد الوجـــود بمثـــل هـــذا الارتشاء العلني كما يرى المرء كل يوم في تركيا، فاخبروني

انهم قرروا الاصلاحات من جانب (حزب تركيا الفتاة). وفي طريق عودتي الى بغداد التقيت (مدير الفلوجة) على نهر الفرات، وسألته هل رفع راتبه؟ فقال انه خفض الى (٤) باونات لكل شهر. غير ان (وزارة المالية) أعلمت المدراء انهم كانوا في الغالب لا يتلقون رواتبهم في الماضي، وانهم سوف يتلقون رواتبهم دائماً في المستقبل، فانهم في الحقيقة افضل كثيراً اليوم براتب (٤) باونات من (٥و٤) باونات في النظام القديم! المنحة الاضافية (البخشيش) التي تعطى للموظفين الاتراك يوافق عليها الجميع حتى الضعفاء.

وكان للبعثة الطبية للكنيسة الانكليزية دار ملحق به اسطبل، وفي اثناء زيارتي المستشفى دهشت لرؤية عربة البعثة الطبية وحصانها في باحة المستشفى، فسألت الطبيب لماذا لم يستعمل اسطبله فاجابني ان الوالي وضع عربته وخيوله فيها. واضاف قوله انه اذا اعترض على عمل الوالي فان الوالي يجعل الامر مستحيلاً عليه في ممارسة مهنته في المدينة. ولما قلت لكاتبي ان الوالي احتل اسطبل البعثة الطبية، اجاب: " أهذا كل شيء؟ الوالي لا يدفع ابداً ثمن اللحم

والخبز والمؤن الاخرى التي تستعمل في بيته. فــان خدمــه يذهبون الى السوق ويأخذون مايريدون".

فقلت: " ولكن هذا يدمرهم" فقال: " كلا، لا يحــدث ذلــك، لانهم يذهبون الى القصابين والخبازين على التعاقب، وهؤلاء يرفعون اسعار بضاعتهم على نحو متناســب علــى جميــع المشترين، وانا وانت هم الذين يدفعون حصــة الــوالي مــن الطعام " ويأخذ الموظفون الصغار (بخشيشهم) بطرق ليســت هينة تماماً.

وكانت ضفة نهر الفرات في المسيب قــد تآكلــت وغــدت مصدر خطر في زمن الفيضان على اعمــال ســدة الهنديــة، اسفل النهر، فأمر الوالي المــدير ان يــدعو الاهــالي فــي المنطقةالى تنفيذ ما يساوي نحو (٢٠٠) باون وتقوية ضــفة النهر. ولما كان الفيضان قريباً ولم يتم عمل شــيء، رأيــت بعض كبار مالكي الارض وسألتهم لماذا لــم يفعلــوا شــيئاً؟ فقالوا ان العمل يكلف (٢٠٠) باون ولكن بما ان المدير هدد بتغريمهم (١٠٠) باون اذا لم ينفذوا العمــل، لــذلك دفعــوا الغرامة. واضافوا قولهم: " لو اننا نفذنا العمل ولــم نــدفع

الغرامة، فان المدير سيموت جوعاً لان الحكومة تـدفع لـه جزءاً من المال الذي يجب صرفه كل شهر".

وكنت ذات مرة مسافراً في جزء مقفر من الولاية، وتوقفت في خان، ولم اكن اعرف المنطقة، فسـرنّي أن أرى سـتين شرطياً خيالاً يصلون عند غروب الشمس. وبعد ذلك مباشرة دخل مترجمي حجرتي ونصحني ان ازلج البـاب واوصـدها واضع جميع صناديقي وراءها لان الخان مملوء بالشرطة.

وحين كنا في بغداد جاء مغامر انكليزي يسوق سيارة مـن دمشق الى بغداد عبر البادية ووصلت غير مخدوشـة، علـى الرغم من ان البدو اطلقوا النار عليه، ولحسن حظـه وصـل سالماً، ولم يكن راغبا في العودة. وانهالـت البرقيـات مـن جميع النواحي التي مر بها، تخبر السلطات ان (الشمندفر) – قطار بغداد – الذي طال انتظاره قد وصل اخيراً.

يمر عشرات الالاف من المسـلمين الشـيعة مـن ايـران وبعضهم من الهند خلال بغداد كل عام لزيارة مراقـد علـي والحسين وآل بيت النبي الآخرين الذين لقي كل واحد مـنهم موته العنيف وان تاريخهم مأساوي حقا. كل ايراني، رجل او امرأة، غني او فقير، يؤدي الزيارة مرة واحدة في الاقل فـي

حياته او حياتها، اذا تيسر ذلك. وهم يجلبون معهم جثث الموتى من ذوي قرباهم في صناديق طويلة لدفنهم قرب المراقد، وهم بذلك يكونون مصدراً لدخل الأتراك على سبيل الاستيراد والضرائب الأخرى. ان الاتراك انفسهم مسلمون سنة، وعرب دلتا دجلة والفرات شيعة جميعاً. وقد حدثني مهندس مصري، كان معي في كربلاء، ان السلطات في المسجد تتقاضى من اربعين باوناً الى ستة بنسات مقابل شهادة الدفن على وفق دفن الجثة قرب المرقد او بعيداً عنه. واضاف مخبري الذي كان سنياً ان الايرانيين يعتقدون ان الحسين سيقوم في يوم القيامة بين اوائل القائمين وان المدفونين قربه سيكونون، بلا ريب، اسرع من اولئك البعيدين، وستكون لهم بالنتيجة الاختيار الاسبق للحور [العين] اللائي ينتظرنهم(*). وتعد كربلاء اغنى مرقد في العالم. وحكومة الهند وحدها. بوصفها الامينة على الشيعة الاتقياء، توزع في المرقد (٤٠و٠٠٠) روبية شهرياً، يأتي اغلب الزوار (الزائرين) ماشين وبعضهم راكبين الحمير او البغال، وبعضهم يسافر في عربات خشنة، بلا نوابض، تستأجر في بغداد، وتستوعب كل واحدة نحو اثني عشر

راكباً، يجلسون منتصبين، محشورين فيهـا، متـدثرين مـن رؤوسهم الى اقدامهم ببطانيات او لحف ثقيلـة لشـدة بـرد الشتاء في العراق. ويكاد يكون تحرك المـرء الجـالس فـي مكانة مستحيلاً. في احدى المناسبات، كنت راكباً من سامراء الى بغداد في وابل من المطر البارد، في مكان مـن الطريـق يمر في خندق ضيق عمقه قدمان ويتسع لمرور عربة واحدة فقط، رأيت عربتين مملوءتين بالزوار قـادمتين مـن بغـداد والتقتا بثلاث عربات من سـامراء. والتقـت رؤوس الخيـل الامامية في الغور الضيق الذي فيه ماء بعمق قـدمين. وقـد جلس الزوار محتشدين،يرفضون التحرك، في الوقـت الـذي كان الحوذيون يتشاتمون وهم على مقاعدهم. وكان حـولهم بحر من المياه والمطر مايزال ينهمر باستمرار. نظرت اليهم نحو ربع ساعة حباً في الاستطلاع، ثم مضيت، ونظرت الـى الخلف من فوق رابية على بعد ميل نحو ذلك المكان، كانـت العربات ماتزال واقفة في مكانها في الخنـدق. ولا ريـب ان الفريق الاضعف هم الذين يخرجـون مـن عربـاتهم اخيـراً ويخوضون في الاوحال ويساعدون الخيـول لسـحبها الـى الارض المستوية، في الوقت الذي يمر الفريق الاقوى. وبما

ان العربات قد رأت بعضها بعضاً قبل ان تلتقي في هذا الممر غير النافذ بمدة طويلة، فقد كان من الممكن لاحد الفريقين ان يسمح للآخر بالمرور، ولكن من الافضل لنا عندئذ ألا نكـون بين العرب.

الحكومة التركية لا تبني جسوراً كثيـرة ولكنهـا اذا بنـت جسراً فان العرب، عادة، يفككون السطح ويلقون الطابوق في الجدول.

كان طبيب اميركي انساني يسوق قادماً من بغداد الى بابل، صعد منحدر جسر، وصار في اعلى نقطة واوشك ان ينـزل الجهة الاخرى، ولما نظر الى الجانـب الآخـر رأى عربـة مملوءة بالزوار ومقلوبة في قاع الجدول الـذي كـان جافـاً كأغلب الجداول في هذه البلاد، فأوقف عربتـه وعـاد الـى الجدول للعناية بمن كان جريحاً. فسألهم بوساطة مترجمـه: هل يوجد جريح؟ فصاح الـزوار الاثنـا عشـر والحـوذي ومساعده معاً ان الجميع كانوا جرحى. وقال لي ان ذلك فوق طاقة حتى الطبيب الانساني. فتركهم ومضى في سـبيله لان الوقت كان متأخراً وكانت بابل مـاتزال علـى بعـد أميـال. وسيكون مدّ سكة حديد من بغـداد الـى كـربلاء والنجـف

مشروعاً عميم النفع. يواجه الزوار في الظروف الاعتيادية مشكلات من السلطات التركية بعشرات الطرق، غير أنهم في اثناء تفشي وباء الكوليرا في سنة ١٩١٠ ارهقوهم الى اقصى حدود تحملهم، وسلبوهم كل نقد يملكونه، فصارت مدة الحجر ضعفين او ثلاثة اضعاف اذا مات الزائر في احد المخيمات. ونتيجة لذلك لم يعلن إلا عن وفيات قليلة. وقد وضع احد المهندسين التابعين لي في مخيم خارج خان، وايقظه ارتطام جثتين القيتا من فوق السور على خيمته.

ولما لم يكن المرء يحتاج الى جواز سفر في الخليج (العربي)، فاني تصورت أني لا احتاج الى أي جواز سفر في تركيا، غير انني تلقيت تنبيهاً فظاً في اسطنبول، فقد كان احد الكنديين مسافراً على باخرة بلا جواز سفر وطلب مني، بوصفي موظفاً تركياً، ان اساعده بالخروج من هذا المأزق. شهدت في دار الكمرك ان جواز سفره سقط في البحر من فوق جانب الباخرة، وسمحوا له بالدخول بلا رسميات، ولكنهم طلبوا مني جواز سفري، ولما لم اكن احمل جوازاً فانهم أخروني، ثم وصلت الفندق بعد الكندي بساعتين. يعتقد ان نفوس بغداد (٢٠٠و٠٠٠) نسمه منهم (٥٠و٠٠٠)

يهودي [كذا – المترجم] وهؤلاء اليهــود متقيــدون شــديدو التقيد بمراسيم يوم السبت، وعلى الرغم من ان الاثرياء هــم من ذوي الوجاهة في المدينة، فان اليهود الاعتياديين، عادة، يعاملهم المسلمون باحتقار. وبسبب هذه المعاملة لم يعــودوا يمتلكون الشجاعة. وقد كنت مسافراً في احدى المناسبات الى حلب، وهجم حوذيان عربيان بعضهما على بعــض، وخاضــا معركة ضارية حقاً. فلما سألت احدهما عن ســبب الشــجار اجابني الحوذي الآخر ضربه كأنه يهودي.

وقد استخدمت في بغداد، رجلاً تركياً ليكــون حاميــاً لــي، يمشي او يركب ورائي حيثما اذهــب، وينــام عنــد قــدمي سريري، ويبعد العرب مسافة محترمة ولاسيما في الصحراء. حرسني حراسة يقظة، شديدة، واصبحت متعلقاً بــه. وكنــت ذات ليلة حارة من ليالي تموز نائماً في شرفة منزلي المطلة على نهر دجلة، كان زورقان، في كل واحد منهمــا ثمانيــة شباب من اليهود، يروحان ويجيئان في النهر تحت شــرفتي، وهم يعزفون ويغنون بصوت عالٍ. فطلبت منهم بعد منتصف الليل ان يكفوا عن الغناء غير انهم واصلوا الغناء بنحو اعلى من السابق. فاستيقظ التركي الذي كان نائمــاً عنــد قــدمي

سريري، وطلب مني ان اسمح له بطردهم، فسمحت لـــه ان يذهب ولكن على ان يترك بندقيته وخنجره. ولـــبس حـــذاءه الطويل، وايقظ (البلاّم) ووثب الى الـــزورق الراســـي عنـــد الدرجات، واتجه الى اقرب الزورقين. ولما اقترب منه، قفـــز فيه وخطف الاله الموسيقية ورماها في النهر، وركل اثنـــين او ثلاثة منهم ولكم بعضهم، واخذ بخناق آخرين، وفي فتـــرة زمنية قصيرة لا تصدق القاهم جميعاً على ظهورهم ولم يترك من الثمانية سوى ثمانية ازواج من السيقان مرفوعـــة فـــي الهواء. ولما كان الآخرون في الـــزورق الثـــاني ينظـــرون مذعورين، وثب بينهم وفعل بهم ما فعل بالسابقين، ثم وثـــب الى زورقه وصاح بهم هادراً ان يـــذهبوا. فـــاختفى الرجـــال الستة عشر باسرع ما استطاعت مجاذيفهم ان تبتعـــد بهـــم. واعطيته جنيهاً انكليزياً ذهباً، عندما عاد الى فراشـــه عنـــد قدمي سريري.

كنا ذات مرة مسافرين من بور سعيد الى قبـــرص مـــن الساحل السوري على الباخرة النمسوية (لويد)، وكان معنـــا اثنا عشر يهودياً هاربين من روسيا، ولهذا كانوا بلا جوازات سفر. حاول الاثنا عشر ان ينزلوا في يافا ولكـــنهم اخفقـــوا،

واستطاع ثلاثة منهم ان ينزلوا في حيفا، وعاد التسعة منهم، ونزل واحد منهم في بيروت، واثنان في طرابلس. وغادرت الباخرة في طرابلس، وسألت القبطان ماذا سيفعل الستة الباقون، فقال انهم سيحاولون النزول في الاسكندرونة ومرسين، ولكن سيخفق اثنان او ثلاثة منهم، ثم يلقيهم في بورسعيد، ملجأ المتشردين. واضاف قوله انهم سوف يجربون حظهم على الباخرة التالية ويواصلون حتى ينجحوا في النزول الى الشاطىء.

وقد ذكرت تواً ان يهود بغداد متقيدون بمراسيم السبت. وكنت دائماً اصدق التوقيع على صكوكي في مساء يوم الخميس، وإني لا استطيع ان اسحب شيئاً من المال يوم الجمعة لأنه عطلة المسلمين، ولا يوم السبت، لأنه عطلة اليهود، ولا يوم الاحد لأنه عطلة النصارى. ويكون الدفتردار مشغولاً جداً فلا يستطيع أن يولي الصكوك عنايته يوم الاثنين، لذلك كان يصدق على الصرف في يوم الثلاثاء مساءً، واذا لم يكن اعتمادي في المصرف قد حّول الى الجيش، فانني كنت اتسلم المبلغ في يوم الاربعاء.

حين يكون ماء دجلة دافئاً في حزيـــران كانـــت الكواســـج (الاقراش) تصعد الى اعالي النهر من الخليج العربـــي، وقـــد شوهدت في سامراء على بعد اميال كثيرة شـــمالي بغـــداد. ويصادف المرء احياناً عربياً قطع الكوسج ذراعـــه. شـــباب بغداد وصبيانها، في اوائل الصـــيف، يقفـــزون مـــن جســـر الزوارق بالمئات ويسبحون في النهـــر وقـــد شـــدوا علـــى ظهورهم كرب النخيل للعوم، ويستمر ذلك السبح بمرح حتى يشاهد اول كوسج في الموسم فتحظر السباحة عنـــد جـــرف النهر، وبما ان الكواسج لايمكنها ان تأتي الى المياه الضحلة في نهر ديالى الذي يصب في دجلة، جنوبي بغداد، فان البرك العميقة في هذا النهر تكون مملوءة بســـمك ضـــخم يســـمى (البز) الذي لا يوجد في نهري دجلة والفرات. وهـــو ينقـــل يومياً الى بغداد، اذ يحمل بغل واحد سمكة واحدة. وفي اقدم الاساطير السومرية، كان الانسان الاول الذي يسكن (اريدو)، عند ملتقى دجلة بالفرات، يقدم لالهه سمكة ضخمة يومياً.

كانت ضيافة المقيمية البريطانية في بغداد مضرب الامثـــال في دلتا نهري دجلة والفرات. ففي كـــانون الثـــاني، ١٩٠٥، تكرم المقيم، (الميجر نيومارج)، بتكليف المقيميـــة بانشـــاء

المقر الرئيس لاعمالي، وقدم لي معلومات نفسية، لاتـثمن، في النصف الاول من السنتين ونصف السنة حـين خـدمت الحكومة التركية، اشغل الكولونيل رامزي وزوجته المقيمية، وفعل الشيء نفسه السيد لوريمر وزوجتـه فـي النصـف الثاني. وفضلا عن فتح بيت مريح ذي حديقة حسنة الترتيب ساحة تنس، فان كلا المقيمين بذل جهداً عظيماً لا حدود لـه لتقليل المصاعب التي تواجهنا مع السلطات [التركية] وكانـت دوماً على استعداد لتقديم المشورة والمعلومات، وكان مـوت لوريمر في بوشهر، بعد مدة قصيرة من مغادرته بغداد، قـد ادى الى قطع ما كان يبشر بمستقبل مشرق فـي مسـتهله. وتلقت السيدة لوريمر أعمق المواساة من كل واحد منهـا. وكان (مستر كري)- صاحب الحل والربط في بغـداد، كـذلك (المستر لايال) في البصرة اللذان لولاهما لما كان ما نعملـه يمكن تصوره. وكنت شديد الاهتمام بالعمل الطبـي لجمعيـة التبشير الكنسية في بغداد التي تعرف في جميع انحاء العراق بالمستشفى البروتستانتي، وكنت اتطلع باهتمام عظـيم الـى اليوم الذي يكتمل فيه المبنى الجديد على ضفة نهـر دجلـة ويكون العمل جاريا فيه. وقد حاول ناظم باشـا ان ينافسـه

بفتح مستشفى مجاني في المدينة، غير ان العرب كانوا يفضلون صرف (بيزاتهم) القليلة ومعالجتهم على ايدي رجال يثقون بهم. ولما لم يكن اخي، الذي يشتغل سكرتيراً مهندساً فقط بل كاهناً في الكنيسة الانكليزية ايضا، فقد كنا نقيم الصلوات كل يوم أحد في حجرة الاستقبال في بيت (السيد والسيدة لانكريج) ويرحبان بنا في فرندا (طارمة) البيت ساعة من الزمان بعد الصلاة. ولم تكن تلقى المواعظ ولا تجمع التبرعات، ولما كانت الجماعة الالمانية من الحضور المنتظمين فقد كنا نصلي لاجل الامبراطور وليم ولاجل ملكنا. ولم نكن نعلم الا قليلا عما يخططه لنا. أتذكر جيداً ذات يوم أحد، حار جداً، كنا نقيم الصلاة بعد اسبوع من مناخ رهيب في أواخر تموز عندما كانت درجة الحرارة في الظل (١١٧ ف و ١٢٠ ف)، ومات (٦٠) طفلاً في بغداد، وجميع الدجاج الرومي، ثمة اماكن في العالم تبلغ درجة الحرارة أعلى مما تبلغه في بغداد ولكن لا يوجد أي مكان تدوم فيه الحرارة عدة شهور من دون أي فتور ابداً، ولا تصل أي هبة من الرياح الموسمية الى بغداد. وكلما مررت بميدان معركة (كيوناكسا) في الصيف اعجب كيف حاربت القطعان المحملة بالاسلحة

الثقيلة في جيش العشرة آلاف يوناني ايام الصيف الطويلة ولم تشوها حرارة الشمس.

كان (مستر واتس)، احد المهندسين، يمسح البادية قرب بحيرة شثاثة حين رأى في مجال ناظوره امرأة انكليزية راكبة فرساً مع مجموعة من الخيالة العرب. كانت دهشته عظيمة لما اقتربت الآنسة [جروترود] لوثيان بيل مع حرسها، وعلم أنها أجتازت البادية راكبة من دمشق. ونصبت خيامها في الحضر، ومسحت الخرائب وقاست ابعادها.

بعد سنتين، كنت في دائرتي ذات مساء، عندما دخلت (مس بيل). كانت راكبة فرساً اثنتي عشرة ساعة، وعادت ادراجها مراراً وتكراراً بسبب فيضان نهر دجلة على الاراضي المحاذية له، ثم وصلت بغداد لتجد ان جسر الزوارق العائم قد جرفته مياه الفيضان. ولما لم يكن سوى مقر للرجال في بيتي، فقد عبرنا النهر في زورق صغير وذهبنا الى المقيمية حيث وجدنا جميع الحجرات مشغولة. ثم ذهبنا الى الفندق ووجدنا جميع الحجرات قد حجزت عدا واحدة كانت مملوءة بالاثاث من الارض حتى السقف. ولم يكن في الفندق أي خدم. وكان رجال قافلة (مس بيل)

مستلقين ونائمين في جميع ارجاء فناء الفنـــدق. ان عبـــور النهر وجلب رجالي يؤدي الى ضياع الوقت لان الفيضان كان يجري كما في قناة الطاحون، لذلك باشرت (مس بيل) بجعـــل رجالها المتعبين يفرغون الحجرة ويضعون فيهـــا اشـــياءها. ذهبت الى احد الرجـــال المســـتلقين علـــى الارض وكلمتـــه بعربيتها الممتازة التي تتحدث بها بلهجة موســـيقية ســـارة: "حسن، يا حسن، ألا تظن اني سأنام اكثر راحـــة فـــي تلـــك الغرفة اذا ما اخرج منها بعض الاثاث؟ " فقال الرجل: "اكيـــد، مدام" ووثب ليوقظ زملاءه الخدم، وبوقت قصـــير لا يصـــدق افرغ الغرفة وكنسها، ورتبها. التأنيب والأمر المتعجرف لـــن يجديا نفعاً مع البدوي المرهق.

التقيت (الهر كولديفي) الاثاري الالماني فـــي بابـــل مـــرة واحدة، وكان عدم لقائه مرات متعددة خسارة لي. قال لي انه كان ينقب في بابل اكثر من عشرين سنة ولم يجد شيئاً يـــدنو من قوانين حمورابي التي وجدها الفرنسي (م. دي موركان) في سوسة حالما بدأ التنقيب. فلعل كورش نقـــل آثـــار بابـــل القديمة الى عاصمته بعد الغزو. وقد انتهت التنقيبـــات فـــي (تلّو) و (نفّر) قبل زماننا بوقت طويل، ولكن بحسب معرفتي

جغرافية بلاد الرافدين فانه لا توجد آثار تظهر فيهـا كنـوز كالتي ستظهر في اور الكلدانيين عند التنقيب فيها، فقد كانت اور العاصمة الاقتصادية للبلاد طوال قرون، ولموقعها الجيـد فانها ستكون احدى المحطات ونقاط الاتصال المهمـة علـى طريق سكة حديد بغداد اذا ما بوشر بتنفيـذ سـكة الحديـد ومنشآت الري.

بعد أن وصلت بغداد بوقت قصير ارسلت (جمعية الاتحـاد والترقي) احد جواسيسها ليعنى بي. فاعطيته احد خدمي بناء على طلبه، ورفض ان يدفع له راتبه كاملاً، مدعياً انني دون ريب ارفع راتب الرجل بمال الحكومة، ثم رفض الانتقال مـن غرفة اعدتها له لانه قال انني ادفع ايجارها من مال الحكومة دون ريب. فامسكت بالرجل وقلت له انني ادفع رواتب خدمي وايجار داري من مواردي المالية، وان لم يدفع راتب خادمي فوراً، وينتقل الى الجانب الآخر من النهـر فـانني سـأرميه وأرمي امتعته في نهر دجلة. فدفع من دون ابطاء وانتقل الى الجانب الآخر من النهر. هؤلاء المخلوقـات اجـبن الجبنـاء مثلما هم متنمرون. بعد ذلك بقليل تلقيت زيارة مـن اعلـى موظف في (جمعية الاتحاد والترقي) الذي كان يقوم بجولـة

في الامبراطورية، واخبرني انهم في اسطنبول يعرفون كيف كان ناظم يعاملني معاملة فخرية. واضاف قوله، لو انني ارسلت رسالة في كل اسبوع ابين فيها جميع مخالفات ناظم باشا واذيلها بتوقيعي (تأكيداً للاقتناع، كما قال) لضمن صرف صكوكي فوراً. فقلت له انه يضيع وقته، عندئذ هبّ واقفاً وصافحني بحرارة وقال ان تركيا تُهنّا على مثل هؤلاء الموظفين. وقام بجولة في الدائرة وكلف احد المستخدمين لدي بالتجسس عليّ. وكنت اعرف انني كلما ارسلت رسالة في دائرة بريد المقيمية كانت تنقل اخبارها الى اسطنبول، حتى كشفت ان الرجل الذي كان ينقل الاخبار عني كان يرسل رسائله من بريد المقيمية بدلاً من البريد التركي.

بدءاً من " بلد" تتكون دلتا دجلة والفرات اليوم اولاً من سهول جرد من الطين فيها جداول لاتحصى ضفافها غرينية، تبين مدى المعركة اليائسة التي يخوضها المزارعون المساكين من اجل الوجود عندما تخربت السدود وانخفض مستوى الماء. وتوجد الآن امتدادات متعاقبة من الارض المنبسطة مغطاة بنباتات الشوك والعاقول التي تموت في الشتاء، تشبه السهول الجرد التي شاهدناها في الشمال. وفي

بعض الاماكن، قرب الانهار، وتوجد، هنا وهناك، على صدر شواطيء دجلة، ولكن ينمو اكثر على شواطيء الفرات، غياض من اشجار الحور تنمو بوفرة، وفي اعالي الفرات، وحين يصل المرء بابل، توجد امتدادات عظيمة من الارض السبخة، موشاة بسهول جرد وكثبان رملية، ولا تغيب عن ناظري الضفاف (السداد) العملاقة للجداول القديمة، وخرائب المدن القديمة.

وكلما سار المرء جنوباً، زادت مساحة الارض السبخة، ثم تبدأ الاهوار بالمساحات الواسعة من الشلب (الرز). وتقع البصرة وشط العرب في ماوراء ملايين الايكرات من هور المياه العذبة. وعلى الرغم من وجود بساتين النخيل والمساحات الواسعة المزروعة على طول ضفاف النهر وعدد قليل من الجداول، فان المرء، لدى اقترابه من الاهوار المنخفضة التي يخندقها نهر الفرات، يرى بساتين النخيل والحدائق تختلط بالحنطة والبرسيم ومشهداً للرخاء يعيد ذكرى الايام الماضية. وان دلتا نهر ديالى شمال شرقي بغداد، يجري ريها وزراعتها جيداً.

قبل ان يتم تنفيذ اعمال الري المهمة في الدلتا، من المهم جداً السيطرة على فيضانات النهرين. وقد قدمت اقتراحاً للحكومة التركية بخصوص نهر الفرات ان يُحفر منفذ الى البادية اقوى مما صنع القدماء، وان يكون صدر المشروع جنوبي الرمادي، ومن الممكن الحصول على صدر فيه اربعون قدماً زيادة على ما كان لدى البابليين وذلك بشق تل منخفض من الطين المالح والجص بطول نحو سبعة اميال، بين منخفضي الحبانية وابي دبس. وسوف يجعلنا ذلك قادرين على السيطرة التامة على الفرات، وتذليل كل صعوبة على ضفتيه. ويبقى نهر دجلة، الى هذا الحد، قمتُ بالتقييم واوصيت بالسداد والجداول نفسها التي استخدمها القدماء على الضفة اليمنى من النهر، غير أنها بدائل مؤقتة، وقد قلت لهم ذلك. ان مشروع السيطرة على نهر دجلة لم يمكن ان يكتمل في السنتين والنصف التي مكثنا فيها في العراق لان المنخفض الذي افترضنا ان يصرف مياه الفيضان الزائدة كان ارضاً متنازعاً عليها بين عرب شمر والدليم – ولم يكونوا قادرين قط على مسحه بنحو مضبوط، بل كنا قادرين فقط على معرفة ان نهاية مجرى الثرثار هي منخفض مالح

تحت سطح البحر بعمق اربع عشرة قدماً ومنتي قـدم تحـت مستوى نهر دجلة، وعلى بعـد ثلاثـين مـيلاً. وان حجـم المنخفض ما يزال لم يدرس. ولدي آمال عظيمه انـه خـلال ستة اشهر من العمل المنظم سوف يخرج ذلك الجـزء مـن العالم من حالة الفوضـى ويبلـغ المكانـة المرجـوة مـن الاستقرار. واذا كان ذلك المنخفض واسعاً بما فيه الكفاية فان انشاء المصرف له ليس سوى مسألة مال فقط. واذا لم يكـن المنخفض واسعاً الى حد كـافٍ فسـيكون مـن الضـروري مواصلة مصرف المياه على بعد اثنين وعشرين ميلاً اخـرى عند صدر مصرف الحبانية على الفرات، وتحويل مياه دجلـة فضلاً عن مياه الفرات الى منخفض ابي دبس. وكان الخـزان الترابي الصغير عند مخرج منخفض ابـي دبـس، شـمالي كربلاء، يعني مستودعاً عظيماً خارق الاتساع ومصرفاً جباراً ايضاً بالنسبة الى بلاد بابـل. ان نهـر دجلـة عنـد حـدود المصرف المقترح أعلى ثلاثين قدماً من الفـرات علـى بعـد اثنين وخمسين ميلاً، وبانشاء سدة على القـاع الحصـوي، يمكن ان يرتفع انثين وعشرين قدماً، وذلك عند موقع خـزان نمرود القديم قريباً.

وإذا ما تمت السيطرة على فيضانات دجلة والفرات فان دلتا النهرين سوف تبلغ درجة من الخصب لم يسجلها التاريخ، ويمكن ان نرى افواج الناس تفد اليها من الهند [لماذا من الهند؟ المترجم] وتجعل سهل شنعار منافساً لارض مصر. وسوف تتضاعف قيمة كل ايكر من الارض عند ملتقى النهر ثلاث مرات قبل تنفيذ منشآت الري، وسوف تتضاعف عدة مرات عند اكتمال تلك المنشآت. وسوف تجد كل مدينة وقرية، من بغداد الى البصرة، نفسها حرة من خطر الفيضان ونفقاته ومزعجاته التي لا تطاق وسوف يصبح احياء هذه الارض القديمة حقيقة ناجزة. وسوف يتم مد سكة حديد بغداد – الخليج في وسط الارض المزروعة وليس خلال الصحراء كما في الوقت الحاضر. ويمكن توجيه كلفة مصارف المياه بكل عدالة نحو نفقات انشاء سكة الحديد والجداول. وقد ايدت مد سكة الحديد بين بغداد والبحر المتوسط مراراً وتكراراً في وادي الفرات بدلاً من الخط الحالي من طريق الموصل وحلب. وتوجد مقترحاتي بشان هذه المسألة المهمة في "المجلة الجغرافية" عدد كانون الثاني، ١٩١٠، ومنها اقتطف الفقرة الختامية لمحاضرتي التي اصبحت اليوم اكثر

قدرة على التطبيق مما كانت حين بــدأت (جمعيــة الاتحــاد والترقي) نظامها بكل ما يبشر بالنجاح: علــى الــرغم مــن تأييدي الحار لسكة الحديد المباشرة التي تربط دلتــا دجلــة والفرات بالبحر المتوسط، لأنه بدون ذلك لن يكــون تطــور البلاد الكامل ممكنا، فان آمالي تتركز في الدلتا نفسها حيــث طموحي أن أرى الاعمال قد نفذت وهي التي نقوم بتخطيطها اليوم. انني اعلم ان في بلدان غربي اوربا حيث يسقط المطر بغزارة في الوقت المناسب، وحيث الدمار والكوارث لا يمكن ان تلحق بالبلد في مدة يوم واحد فاننا نميل الــى تصــور ان اعمال الاحياء لابد ان تستغرق سنوات طويلــة لكــي تــؤتي ثمارها، غير ان الامر في المناطق القاحلة ليس كــذلك، لان انحسار الماء عنها يحيل الحدائق صحراء في اسابيع قليلــة، فاحياء الارض يمس البلاد بعصا ساحر، وان بلاد بابــل فــي خلال الاف السنين من تاريخها قد غمرتهــا ميــاه الفيضــان مراراً، غير انها كانت تنهض من جديد دائمــاً بطاقــة وجــد ينافسان سقوطها المفاجيء والتام. انها لم تحقــق قــط فــي الاستجابة لأولئك الذين جاهدوا من اجل اعادة المياه اليهــا، ونهضتها. ويبدو مرة أخرى ان الوقت قد حان من اجل هــذه

الارض التي عانت البؤس طويلاً لكي تنهض من الحضيض وتحتل مكانها الى جانب منافستها القديمة، ارض مصر. ان الاعمال التي اقترحناها قد رسمت على خطوط اكيدة وصادقة، وفي اليوم الذي ستنفذ، سيسرع النهران العظيمان للاستجابة، وسوف ترى بلاد الرافدين مرة اخرى ان ارضها البور قد اصبحت يسكنها الناس، وان الصحراء اصبحت مزدهرة كالورود.

(*) كلمة بلم التي تعني (زورق) هي كلمة (بلم) العربية بمعنى نوع من السمك الصغير، وقد تشبه به الزورق لصغره ونحافته، وكلمة فلوكة هي تصغير (فلك) بمعنى سفينة، فهما عربيتان وليستا من لغة اهل الملايو او اهل البندقية.
(المترجم)

رحلة الى بغداد
نواب حميد يار جونك بهادر

تمهيد

يخامر كل امريء يعرف، او يخال انه يعرف، كيف يكتب، طموحٌ اعتيادي في ان يصبح مؤلفاً. ولابد لي في معرض اعترافي باني لست استثناء من هذه القاعدة، ان أبين مدى ادراكي مواطن ضعفي. ولما لم يكن في نيتي نشر هذه اليوميات عندما بدأت تدوينها، وبما انها لا تعدو ان تكون الا مجرد سجل لاحداث طرأت في غضون الرحلة التي قمت بها في صحبة والدي، فاني ليحدوني الامل ان يغض قرائي الطرف عن الشوائب التي تكتنفها. واذا ما حالفني التوفيق في نقل كل ما اصبو الى نقله عن الرحلة التي اثارت في نفسي غاية الامتاع، واذا ماوجد قرائي شيئاً من التسلية بما سجلته، فان ذلك سيزيل شيئاً من تهيبي في المغامرة بما يليق بهذه المدونة الصغيرة.

المؤلف

رحلة الى بغداد

الخميس ٢١ آذار ١٩٠٧، غادرت "حيدر آباد" الى "اجمير" بصحبة والدي العقيد نواب افسر المُلك، بهادر[١] فبلغناها في الليلة الثالثة من رحيلنا، وقد استقبلنا في المحطة اخي الاصغر محبوب الذي يدرس في "كلية مايو". ومكث والدي مع مستر وودنكتن، رئيس "كلية مايو" الذي دعاه الى ضيافته اثناء زيارته الى "اجمير"، ونزلت مع محبوب في "دار تونك" في كلية مايو. الاحد ٢٤ آذار – ركبنا في الصباح متوجهين الى دولة باغ: كانت الحدائق جميلة، لطيفة الترتيب. وزرنا ايضاً خزان اناساكار البارع الجمال، وقد اقيمت على السد مقاصير من المرمر الخالص، شيدها الامبراطور شاه جهان[٢] سنة ١٦٣٧. والمبنى بالغ الاناقة يضفي على الخزان مظهراً جليلاً. اصطحب مستر وودنكتن ابي عصراً الى الكلية حيث رأى الدور المختلفة التي يبلغ عددها جميعاً عشرة للاقسام الداخلية، وهي تعود لولايات مختلفة، فضلاً عن مبنى الكلية. وتضفي تلك المباني مظهراً بديعاً للكلية.

الاثنين ٢٥ آذار – غادرنا اجمير مساء ووصلنا بومبي في صباح الاربعاء الباكر، وذهبنا بعد الافطار لرؤيـــة ســفينتنا، المسماة دواركا العائدة الى شركة .B.I.S.N وبالرغم من ان دواركا لم تكن باخرة كبيرة جداً، فقد الفينا كل شـــيء فيهــا نظيفاً، وقد ابدى ربانها وضباطها غاية اللطــف والأنــس. وامضيت بقية النهار فـــي استحصـــال التـــذاكر والجـــوازات وغيرها. واودعنا مالنا الذي سنأخذه معنا لدى شركة .B. I. S.N واخذنا منها اعتماداً به الى وكلائهم في بغداد: السادة ستيفن لنج وشركائه[٣]. وفي اليوم التالي ذهبنا الى رصـــيف فكتوريا في حوالي الساعة الثامنة صباحاً. وكان البحر هادئاً. وكان الجو في الليل شديد البرودة وعندما نهضنا في الصباح كان البرد كنهاية موسم البرد في حيدر آبـــاد تقريبـــاً. وفـــي حوالي الساعة العاشرة صباحاً ابصرنا ارضـــاً فـــي الجهـــة الشمالية. واستطعنا ان نســـتبين، بمعونـــة منظـــار، مدينـــة صغيرة ومنائر معبد. وعلمنا لدى استفسارنا من الضـــباط ان المعبد يدعى دواركا وقد سميت السفينة باسمه وانـــه مكـــان مشهور لعبادة الهندوس. ووصلنا خليج كـــو فـــي الســـاعة الواحدة وتوقفت باخرتنا ساعتين في مانـــدفي حيـــث نـــزل

خمسون راكباً تقريباً وصعد اليها قلة آخـرون. واسـتأنفنا السفر في الساعة الثالثة عصراً ووصلنا "كراجي" في صـباح اليوم التالي، الساعة السادسة منه. ومكثنا فيها نهـار ذلـك اليوم كله. ولم يسمح لأحد ان يدخل المدينـة نظـراً لقيـود الحجر الصحي. واخذوا جميع ركاب الدرجة الثالثـة وخـدم السفينة الى مخيم الحجر الصحي حيث تم فحصهم ثم اعيدوا الى السفينة. وتركنا كراجي في حوالي الساعة الثامنة مساء واخذنا معنا البريد الانكليزي الذي وصل في الوقـت المحـدد في باخرة اخرى.

الاحد ٣١ آذار – كان البحر مثل صفحة مرآة. ووصلنا في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي الـى مسـقط حيـث رست السفينة ساعتين لكي تسلم الرسائل والرزم وغير ذلك. تقع المدينة في اسفل صخور جبـارة. وفيهـا بيـوت ذوات طبقتين او ثلاث طبقات تواجه البحر وهي قريبة مـن حافـة المياه. وكان بيت السلطان، الذي دلونا عليه بالاشارة، مبنـى مهيباً يرفرف عليه علم احمر، والى جانبـه مقـر المنـدوب السامي الذي يميزه علم المملكة المتحدة الخافق فوقه.

الثلاثاء ٢ نيسان – دخلت سفينتنا الخليج (العربي) في حوالي الساعة الثانية. وعندما صعدنا الى ظهر السفينة في الصباح وجدنا السماء ملبدة بالغيوم وكانت ترسل رذاذاً خفيفاً. كان الساحل الشرقي على جهة منا والساحل العربي على الجهة الاخرى وسفينتنا تسير بينهما في الصباح الباكر عندما هب نسيم بارد وصوت الامواج الرقيق يبعث الهدوء في النفس. وكان ابي لا يشعر بالراحة، عموماً، في اية رحلة بحرية، غير انه في هذه الرحلة استمتع كثيراً، لان البحر كان هادئاً تماماً. وكان يرافقه الدكتور عناية علي الذي اهتم به اهتماماً كبيراً. وكان ينصحه كل مساء عندما يصبح الهواء باردا ان ينزل لئلاً يعرض نفسه للهواء الرطب.

الاربعاء ٣ نيسان – وصلنا بوشهر في حوالي الساعة الثامنة من الصباح. والقت سفينتنا مراسيها بعيداً عن الساحل وما ان تم تسليم البريد حتى استأنفنا السفر مرة اخرى. وبعد قليل هبت فجأة ريح قوية واضطراب البحر. واصيب كل من على السفينة تقريباً بدوار البحر. ومكث ابي في مقصورته طوال النهار.

ووصلنا الكويت في الساعة السابعة مساءً، والقت باخرتنا مراسيها هاهنا طوال الليل، ثم غادرنا في الساعة الثامنة بعد ان نزل خمسون مسافراً، كلهم تقريباً من العرب. تقع الكويت على ساحل الجزيرة العربية واغلب سكانها من التجار العرب. وسلطان الكويت يتمتع باستقلال تام، وله تأثير عظيم في شعبه، وهو غني جداً ويمتلك عدداً كبيراً من بساتين النخيل على ضفتي شط العرب. وفي الكويت يقيم قنصل بريطاني – هو الميجر نوكس، الاوربي الوحيد فيها.

الخميس ٤ نيسان – وصلنا الفاو في الساعة الواحدة ورسونا فيها قرابة ساعتين. وسلم البريد فيها ثم استأنفنا السفر. ودخلنا من هذا المكان شط العرب. وكان الحاج ابراهيم مرشد السفن قد اخذ على عاتقه مسؤولية السفينة. كان مدخل النهر، الذي يسمى السد في حالة سيئة بسبب الرمال التي يجرفها ولا يجري تنظيفها. وبعد ان توغلنا في النهر مسافة قصيرة، اخذ يضيق تدريجاً وكانت الضفتان على بعد يتراوح بين مئتين او ثلاث مئة ياردة عن الباخرة. تغطي الضفتين بساتين النخيل التي اضفت عليهما منظراً خلاباً. وكنا نرى بيوتاً صغيرة من الطين، يسكنها عربي وعائلته

ممن يهتمون بالبساتين. وكنا نرى حصاناً عربياً او حصانين امام هذه البيوت ترعى مع الماشية. وكانت الحنطة تزرع بين صفوف النخيل. فالتربة خصبة جداً والمياه وفيرة. كان على ظهر الباخرة قليل من اهل البصرة وعلمنا منهم ان لاشيء انفع من بستان نخيل؛ وتشتهر تمور البصرة في جميع انحاء العالم بجودتها. وبما انها تنمو بكميات وفيرة فانها تصدر الى اوربا وامريكا والهند. ولم يكن النخيل في هذا الوقت يحمل تمراً. فهو يبدأ في ايار بالحمل وينضج في ايلول، فيكون منظر الاشجار بديعاً. في شهري ايلول وتشرين الاول [٤]، يجنى التمر ويعبأ في صناديق من الخشب، او اكياس او حصران (خصاف) لنقله بالسفن. وتغل كل شجرة ما معدله ٣٠٠ ليبرة[٥] من التمر سنوياً بربح قدره ٨ ربيات[٦] يحصل عليها مالكها.

وصلنا في الساعة السابعة الى المحمرة وهي بلدة صغيرة على ضفة النهر. ويصب هنا نهر الكارون احد روافد الفرات[٧]، وتسيرّ فيه باخرتان الى الاحواز، والمدن التجارية الاخرى في ايران تمتلكهما شركة بريطانية. ورست باخرتنا في هذا المكان طوال الليل، ثم غادرنا في الصباح عند

الساعة السابعة الى البصرة التي تبعد عشرين ميلاً من هنــا. ولما مرت باخرتنا بقصر شيخ المحمرة اطلقت اطلاقة مــدفع واحدة تحية واعترافاً ببعض الخدمات التي قدمها الشيخ الــى شركة B. I. S. N قبل سنوات: فتطلق كل باخرة عائدة لهذه الشركة تحية لدى مرورها بمنزل الشــيخ: وشــاهدنا، لــدى مرورنا من المحمرة الى البصرة، بعض المباني الكبيرة ذوات طبقتين على ضفتي النهر ، تخص الاثرياء الذين يســكنونها اثناء الصيف.

وصلنا البصرة في مدة ساعتين ورســونا امــام المحجــر الصحي. وانشغل نوتية الباخرة طوال النهار بافراغ حمولتها التي يكوّن الخشب والحنطة نسبة عالية جداً منها.

السبت ٦ نيسان – غادرنا الباخرة فــي حــوالي الســاعة الرابعة الى مخيم الحجر الصحي في زورق اعــارهُ متلطفــاً الكابتن هرست. ورافقنا الضابط الاقدم، مستر ستوكويل الــى الشاطيء. ودلنا طبيب المحجر الصحي، الذي رافقنــا، علــى مقرنا الذي يتكون من بيت لطيف ونظيف جداً فيه حجرتــان على كل جانب وحجرة طعام في الوسط. يقع البيت على بعــد

ثلاثين ياردة من النهر، وفيه حديقة صغيرة امامه، يغلب فيها اشجار العنب.

طبيب المحجر من رومانيا اسمه فريد مان. عينته الحكومة التركية. وكان الطبيب والموظفون الآخرون في المحجر لطفاء للغاية. ووضع دكتور فريد مان زورقاً حكومياً تحت تصرفنا واخبر ابي اننا نستطيع الخروج بالزورق متى ماتشاء، على ان لا ندخل مدينة البصرة.

سمعنا كثيراً عن المشكلات والمصاعب التي يجب تحملها اثناء فترة الحجر الصحي، غير اننا، على نقيض ذلك كله، الفينا كل شيء مريحاً غاية الراحة. وبالرغم من ان الحجرات لم تكن فسيحة، فانها كانت نظيفة، وعلى النوافذ ستائر خضر، كان البيت مؤثثاً خير تأثيث بالاسرة وستائر البعوض، والمناضد والكراسي، ومجهزاً بالسكاكين والشوكات وغير ذلك.

وقبل ان نغادر حيدر آباد اعطى حضرة السيد عبد الرحمن افندي البغدادي أبي رسالة توصية الى ابن اخيه السيد رجب افندي نقيب الاشراف الذي يسكن البصرة، ولدى وصولنا اليها، بعث ابي بالرسالة اليه. جاء في اليوم الثاني ابن نقيب

الاشراف في زورقه لرؤية والدي، واخبره ان السيد النقيب خارج الى الصيد في الريف، ولكنه سيعود في المساء، وسوف يعرج لرؤية ابي في اليوم الثاني. وكان يرجو بعد انقضاء فترة الحجر الصحي في صباح الاربعاء ان نحل ضيوفاً عليهم في البصرة حتى يحين موعد رحيلنا الى بغداد. فقبل ابي هذه الدعوة الكريمة. وخرجنا في الساعة الرابعة عصراً الى صيد البط، واصطحبنا رجل من المحجر ليدلنا على البط. ورأينا قليلاً منه ولما لم يكن لنا مكمن على ضفتي النهر، لم نكن قادرين على الوصول ضمن المدى المناسب، ولذلك لم نملأ كيساً كبيراً.

الاثنين ٨ نيسان – حضر نقيب الاشراف صباحاً الى المحجر الصحي لرؤية ابي. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة، وتحدثا طويلاً. الاربعاء ١٠ نيسان – حزمنا امتعتنا تأهباً للذهاب الى شاطيء النهر. وحضر الى مقرنا في نحو الساعة الثامنة يوسف بك وهشام بك افندي ابن نقيب الاشراف السيد رجب افندي وابن اخيه. كان والدي يتناول افطاره في ذلك الوقت، لذلك دعوناهما الى مشاركتنا. وقال هشام بك افندي لابي اثناء الحديث ان نقيب الاشراف اخبر والي البصرة عن

وصولنا، ورجاه ان يبعث عربته الى رصيف المرفأ لتنقل والدي. وعندما سمع والي البصرة ان نقيب الاشراف يريد العربة من اجل آمر قوات سمو النظام اوضح ان من تقاليد الامبراطورية العثمانية اذا ماوصل "سره عسكر" أي لواء عسكري الى أي موقع عسكري رافقه حرس الشرف، لذلك فانه لن يرسل عربته الخاصة حسب وانما سيأمر قائد البارجة الحربية "اقليد البحر"، أي مفتاح البحر، الراسية قرب المرفأ ان يجهز حرساً للشرف. وامر والي البصرة ايضاً "امير البحر" ان يذهب في احد زوارق السفينة الى موقع المحجر الصحي ليصحب ابي في عبور النهر.

بعد الافطار، وعندما كان ابي ويوسف بك وهشام بك افندي يتمشون على الشاطيء وصل امير البحر وعبد الوهاب افندي امين السر الخاص لوالي البصرة وعبد الله باشا عضو مجلس الوالي وعوني بك وألاي قومنداني أي مفتش الشرطة العام، وجاءوا لمقابلتنا. قدم يوسف بك هؤلاء الموظفين الى ابي وتكلم اليهم قليلاً باللغة العربية. واعجب امير البحر ببدلات جندينا من حرس الخيالة الافريقي وببدلة جمدار[٨] غلام مرتضى من حاملي الرماح الماسية.

ثم دخل ابي ومحبوب وانا في زورق امير البحر وتبعنا في زورق آخر الدكتور عناية علي خان وجنـديان مـع مفـتش الشرطة العام وكانت البارجة التركية "اقليد البحـر" راسـية قرب بناية في طبقتين هي دائرة امير البحر. وجذفوا الزورق حتى صرنا امام البيت. تشكل حرس شـرف مـن حـوالي عشرين بحارا تركيا مسلحين ببنـادق مـارتيني - هنـري، وكانوا واقفين على السدة وتقابلهم الجوقة الموسيقية العائدة للبارجة نفسها. وعندما نزل والدي، اطلـق ضـابط حـرس الشرف امراً يشبه "سلام در"(٩).

وامتثالاً لامره جعل حرس الشرف بنادقهم في وضع يشـبه ما عندنا من " سلاحك قدّم". وفتش ابي حرس الشـرف ثـم تقدّم مع نقيب الاشراف والموظفين الآخرين الى دائرة اميـر البحر حيث جلسنا حوالي عشر دقائق وتحـدث ابـي حـديثاً قصيراً مع امير البحر، ثم غادرنا المكان. وصعد ابي ونقيـب الاشراف ومحبوب وانا في عربة ارسـلها والـي البصـرة، وتبعنا بقية الجماعة ورافقنا حرس الوالي وعددهم اثنا عشر رجلاً.

تشبه سترات حرس والي البصرة سترات مدفعية سمو النظام كثيراً. ويلبسون سراويل فضفاضة منتفخة كالاكياس وطرابيش تركية واحزمة عبر اكتافهم يحملون فيها عتاد مارتيني – هنري.

كانوا جميعاً ضخاماً، بشرتهم لطيفة ولحاهم حليقة، تبدو عليهم البسالة، غير ان جلستهم على ظهور الجياد لم تكن بالغة حد الكمال. يمتطون جياداً عربية أصيلة عليها سروج، وركابها من حديد عريض، وسيور اللجام اشرطة قطنية عريضة.

سرنا خلال مدينة البصرة الى بيت نقيب الاشراف، ومررنا في طريقنا باسواق ضيقة وازقة. كانت الطرقات موحلة بسبب المطر الذي هطل ليلة امس. هيأ مضيفنا بيتاً مستقلاً لاستقبالنا، مؤثثاً على الاسلوب الاوربي. وارسل السيد النقيب كلمة يخبرنا ان الافطار (١٠) سيقدم في الساعة السادسة، دهشنا لدى سماعنا ذلك لان الساعة كانت الحادية عشرة آنذاك، ولكن الرجال العرب المرافقين لنا اخبرونا بالفرق العظيم بين توقيت البصرة والتوقيت الانكليزي: فحسب التوقيت الاول تكون الساعة الثانية عشرة عند غروب

الشمس وعند شروقها ايضاً، وبهذا تعني الساعة السادسة قبل الظهر في الحقيقة الثانية عشرة ظهراً بتوقيتنا.

وذهبنا في الساعة المعينة الى مقر نقيب الاشراف. وجاء مضيفنا لاستقبال ابي وقادنا الى "الديوان خانة" او غرفة الاستقبال، وهي بهو فسيح، حولها دواوين (ارائك) وبسط نفيسة مفروشة على الأرض. وجلسنا فيها، وبعد ان وصل جميع الضيوف اصطحب نقيب الاشراف ابي الى بهو الطعام حيث مدت منضدة واسعة وعليها السكاكين والشوكات وغير ذلك مرتبة وفق ترتيبها الصحيح. ووضعت انواع مختلفة من المخللات والمربيات في صحون صغيرة على المائدة. وبعد ان اتخذنا مقاعدنا قدم لنا حساء طماطة، ثم جلب خروف كامل مشوي ومحشو بالرز والكشمش واللوز وغير ذلك على طبق كبير. انها طبخة جديدة تماماً بالنسبة الينا، ولذيذة غاية اللذة، تشبه "البلاو" الهندي. وسألنا عنها فقيل لنا انها تدعى "قوزي" وهي كلمة تركية تعني حملاً، ثم تلا ذلك دجاج مشوي وحلويات ومعجنات حلوة ورز متبل بالكاري. استغرقت وجبة الطعام نحو ساعة، ثم استأذنا مضيفنا بالانصراف وذهبنا الى مقرنا. وقال نقيب الاشراف لوالدي

اثناء مغادرتنا من دواعي المجاملة زيارة الوالي، مادام قد ارسل له عربته وحرسه. ولما كان وقت رحيلنا قريباً، فقد اقترح ان نذهب اليه عصر اليوم نفسه، فوافق ابي، مسروراً، على ذلك.

ذهبت عند الساعة الواحدة الى لنج وشركانه لترتيب امر سفرنا الى بغداد، في الوقت الذي ذهب ابي ومحبوب بصحبة نقيب الاشراف لزيارة والي البصرة. حكى لي محبوب في مابعد ان الوالي استقبل ابي استقبالاً قلبياً، وتحدثا طويلاً وقال الوالي اثناء حديثه ان رغبة عظيمة تعمر قلبه لرؤية الهند، وانه يأمل في نهاية خدمته في البصرة، التي ستنتهي بعد حوالي خمس سنوات، ان يحقق هذه الرغبة ويزور حيدر آباد ايضاً. وعند مغادرة والدي، اخبره الوالي انه مدعو لدى نقيب الاشراف الى العشاء حيث يأمل لقاءه مرة اخرى. وكنت في ذلك الوقت قد رتبت امر كل شيء بخصوص رحلتنا، ولدى عودتي رأيت السوق الكبير وغيره الذي يقع على ضفة شط العرب. اغلب البيوت من طبقتين وهي مبنية من اللبن. ولا يستعمل الرخام هنا كثيرا لغلائه الفاحش، لذلك كانت البيوت تبنى كلها من الطابوق واللبن.. والمطر خفيف

هنا والا لا صيبت هذه البيوت باضرار جسيمة. طرق البصرة ضيقة جداً ومهملة وليس ثمة تنظيم في انارة الشوارع. يتكون السوق الكبير من طريق طويل ضيق يغطيه سقف وعلى جانبيه صفوف من الحوانيت - تشبه محطة السكة الحديد من بعيد. السوق مغطى بسقف لتيسير التسوق اثناء اشهر الصيف عندما تكون الحرارة لاتطاق. وكل اصحاب الحوانيت تقريباً من العرب فيما خلا قلة من حوانيت الفاكهة والمخابز التي تعود لليهود. ولا يوجد في البصرة، فضلاً عن هذه الحوانيت الصغيرة في السوق، مخازن او حوانيت كبيرة. ويتم كثير من النقل بالزوارق بسبب وقوع المدينة على ضفة النهر. ويمكن استئجار العربات ايضاً غير انها ليست في حالة جيدة نتيجة لسوء حالة الطرق. ولا يوجد في البصرة، على ما اعلم، أي نادٍ او بهو للبلدية تعقد فيها اجتماعات لاهل البصرة. للاوربيين، طبعاً، ناديهم. ويوجد عدد من المقاهي (قهوة خانة) التي تؤمها العامة من الناس. وتكثر البساتين حول البصرة ويقولون انه يمكن الحصول على كل انواع الفاكهة من شهر حزيران لمدة اربعة شهور، حيث يسود الجو الحار، الذي لايطاق فيلجأ الاثرياء عموماً

الى منازلهم الصيفية التي تقع على ضفة النهر وتحيط بهـا البساتين، او انهم يلوذون بحجـرات تحـت الارض تـدعى السراديب، بنيت خصيصاً للاستعمال في اشهر الصيف. كانت اغلب الحوانيت قد اغلقت عند عودتي في الساعة الرابعـة، ولما استفسرت عن ذلك عرفت ان الناس اعتادوا ان يغلقـوا حوانيتهم مبكرين.

ارسل نقيب الاشراف في المساء كلمـة يقـول فيهـا ان العشاء سيقدم في الساعة الثانية عشرة وهذا يعنـي حـوالي الساعة السادسة والنصف زوالية، وانه سوف يبعـث خبـراً بوصول الوالي. كان ابي جالساً في حجرته لكتابـة رسـائل، وكان في نيته ان يذهب الى حجرة الاستقبال في مابعد لـدى سماعه بوصول الوالي. وكان جامدار محمـود مـن حـرس الخيالة الافريقي واقفاً قرب والدي عندما دخل احد خدم السيد النقيب وطلب اليه ان يخبر سـيده ان الـوالي قـد وصـل. والتبس الامر على جامدار محمود فاخطأ في فهم كلمة والي وظنها "مالي" أي بستاني، فرأى ان من غير الحكمة ازعـاج سيده وهو في عمله بخبر وصول شخص لا ا÷مية له. فوقف دقائق معدودات يفكر محاولاً معرفة الامر ثم عاد خادم النقيب

الذي كان ينتظر متلهفا، وذكره مرة اخرى برسـالته. ولمـا سمع ابي كلام خادم السيد النقيب، رفع نظره وسأل ما الامر؟ فتقدم جامدار محمود بكل احترام وقال:

"اخبرني هذا الرجل بوصول المالي ولا ادري لمـاذا جـاء؟ لذلك لم اشأ ازعاجك." فلما سمع ابي ذلك ادرك الخطأ الـذي وقع فيه محمود واسرع الى حجرة الاسـتقبال حيـث قابـل الوالي والسيد النقيب.

كان العشاء يشبه الوجبة السابقة في الغداء. عاد الجميـع بعد العشاء الى حجرة الجلوس حيث قدمت القهوة. وحان بعد قليل موعد الصلاة، فمدت السجاجيد فـي الحجـرة نفسـها وادى الصلاة جميع من كان حاضراً، وبعدها قـدمت القهـوة والسيكاير مرة اخرى. وقبل ان نغادر قال الوالي لابـي انـه سمع من النقيب ان ابي سيذهب الى الزبير في اليوم التـالي وانه ايضاً سيذهب لرؤية الاماكن التي تربى فيها الخيل. وبما ان الزبير تبعد حوالي عشرين ميلاً عن البصرة وان الطريق يمر بجداول وارض صحراوية، فمن المستحسن ان يصـحبه حرس وانه سيكتب الى "السر عسكر" طـاهر باشـا ليرسـل الحرس لوالدي. وعندما انفض جميع الضيوف، ودعنا نحـن

ايضاً السيد النقيب وتمنينا له ليلة سعيدة، وقـال لنـا اننـا سنبدأ غداً صباحاً سفرنا الى الزبير قبل الشروق.

عدنا الى حجراتنا في حوالي السـاعة التاسـعة مسـاءً. وتحدثنا طويلاً عن الخيول العربية. اراد ابـي الـذهاب الـى الاماكن التي تربى فيها الخيول العربية بكثرة ومنها تصدر لا الى بومبي وحدها بل اماكن عديدة اخرى، وكان راغبـاً فـي المكوث لدى القبائل التي تمتلك اكبر عدد من الافراس، مثـل نجد، وفي رؤية الخيول العربية في مواطنها الاصلية من اجل الاطلاع عن كثب على طرائق توالدها وتربيتها. وكان السبب الرئيس الذي دعا والدي الى اصطحابي واصطحاب محبـوب هو ان نحصل على معلومات كاملة عن الحصـان العربـي. واخبرني قبل ان تبدأ سفرتنا ان آخذ محاضرته عن الحصان العربي لكي نتدارسها اثناء رحلتنا ونكون متـأهبين للـدرس الذي سنتلقاه في مابعد. وسوف اشير الى ذلك الدرس الـذي سنتلقاه في ما بعد. وسوف اشير الى ذلـك الـدرس الـذي تلقيناه في نهاية هذه الرحلة.

نهضنا انا ومحبوب مبكرين في صباح اليوم التالي. وبعد ان لبسنا ذهبنا الى حجرة والدي ووجدناه متأهباً. وارسل نقيب الاشراف بعد قليل كلمة يقول انه متأهب لبدء السفرة.

سرنا نحو ميل يصحبنا حرس والي البصرة وتوقفت عرباتنا قرب ضفة نهر حيث كانت زوارق بانتظارنا. تركنا عرباتنا وصعدنا في الزوارق التي سيّرها بعض الرجال بالتجذيف اذ لم تكن الريح كافية لرفع الاشرعة. وظن ابي ان الحرس سيعودون من هنا ولكنه دهش عندما رأى الحرس يدخلون الماء بخيولهم ويصاحبون الزورق. وعندما سأل: هل يتبع هؤلاء الرجال الزورق طول الطريق، اوضح له نقيب الاشراف: بما ان الوالي امرهم ان يحرسوه حتى الزبير، فانهم سيظلون يتبعوننا مادام الماء ضحلاً والنهر عريضاً، وعندما يضيق النهر فانهم سيسيرون على اليابسة. كان هذا الطريق قبل سنوات يعتبر خطراً لوجود قطاع الطرق ولكنه اصبح الأن اكثر أمناً، ولكن يفضل ان لايخرج المسافرون دون حراسة. ودخل الزورق بعد فترة جدولاً ضيقاً جداً، فبدل الحرس موضعهم: اذ تقدمونا مثنى وساروا امامنا على خيولهم بمسافة تقرب من ٣٠٠ ياردة. يبدو انهم قد اتخذوا

نظام الكشافة ترتيباً لهم، وساروا بهذه الطريقة في الصحراء لكي يستطيعوا التطلع الى كل جهة. وبعد ان امضينا قرابة اربع ساعات صرنا نرى على يميننا ضريح طلحة وامامنا ضريح الزبير. وقص لنا ابي بناء على طلب محبوب حكاية مقتلهما في واقعة الجمل.. ورأينا على مسافة قصيرة من هذين الضريحين منارة صغيرة.

وبعد ان قطعنا مسافة قصيرة، خرجنا من زوارقنا وركبنا الى الزبير القريبة جداً. استقبلنا شيخ الزبير، خالد باشا، ودعانا الى بيته، ومنه ذهبنا الى ضريح الزبير وقرأنا الفاتحة، ثم زرنا ضريح الحسن البصري ومحمد بن سيرين، في الوقت نفسه، وهو مجاور له. عاش هذان الوليان في ايام حكم الخليفة هارون الرشيد. واشتهر محمد بن سيرين، بتفسير الاحلام. ويقال ان زبيدة خاتون(١١) زوجة هارون الرشيد رأت حلماً غريباً ذات ليلة فارسلت في صباح اليوم التالي احدى وصيفاتها الى محمد بن سيرين تقول له انها (أي الجارية) نفسها قد رأت ذلك الحلم. فلما استمع اليها محمد بن سيرين قال لها ان الحلم ليس لها، بل لا حدى الشخصيات من ذوات المقام الرفيع. وعندما بلغت الجارية

رسالتها الى سيدتها امرتها ان تعود اليه وتقـول ان زبيـدة خاتون هي التي رأت الحلم في المنام، فقال محمد بن سيرين ان زبيدة خاتون ستقوم في وقت قريب بعمل جليـل وكـريم ويعم نفعه على بني الانسان والحيوان على حد سواء. وبعـد وقت قصير شقت زبيدة خـاتون قنـاة مـن سـوريا الـى الكعبة[١٢]، ومازالت الـى يومنـا هـذا تـزود المسـافرين والحيوانات بالماء، وهي المصدر الوحيد للمـاء فـي تلـك الصحراء الخالية من الماء.

ثم ذهبنا لرؤية خيول خالد باشا. ولما وصلنا الـى هنـاك وجدنا ان خالد باشا لا يستولد الخيل النجدية بل يحصل عليها قريب له يعيش في نجد. كان نحو اربعين حصـاناً مربوطـة بحبال في اسطبل يتكون من مبنى مربع يحيط به جدار مـن طين. وبما ان اغلب هذه الحيوانات قد وصلت اليه من نجـد منذ وقت قريب ولم تستعد قوتها تماماً، فانها كانت مرهقـة من طول الرحيل ولم تكن في حال طيبة. تفحصها ابي جميعاً وبين اهم مزاياها. كان بينها بعض الخيل العراقية ايضاً، لـذا استطعنا ان نقارن بين الفئتين. وعندما اوشكنا ان نغادر دعا نقيب الاشراف خالد باشا الى ضيعته الريفية التي كنا ذاهبين

اليها. فرافقنا بعربته الخاصة يتبعه عشرون عربياً ممتطـين صهوات الجياد التي رأيناها تواً وبالرغم من حداثة وصـولها فانها كانت حسنة التدريب وتطيع فرسانها تماماً.

انه لمنظر رائع ان ترى العرب ممتطـين خيـولاً نجديـة ويسيرون خبباً امامنا. وكان العرب ينشدون معاً في فتـرات قصيرة اناشيد حربهم التي تتغنى ببطولات اجـدادهم. سـرنا على هذا المنوال ساعة ثم وصلنا ضيعة نقيب الاشراف التي تدعى الربضية. وفيهانصبوا لنا خياماً. وتفقـدنا، قبـل كـل شيء، خيول نقيب الاشراف. وكان عددها حـوالي اربعـين، ولد اكثرها في هذا المكان. وتفقدنا ايضاً بعض فحول الخيـل التي افردت عن الاناث. ولم تكن هذه الخيول نجدية صـرفاً، بل تجري فيها دماء عراقية.

ذهبنا الى الخيام المخصصة لنا، وبعد ان غسلنا جئنا الـى خيمة الغداء. ارتحنا بعد الطعام حتى السـاعة الرابعـة، ثـم خرج ابي ومحبوب وانا معهما يصحبنا ابن نقيب الاشـراف الاصغر حميد بك، راكبين خيولاً في السهل الفسيح الذي يمتد حولنا. وكنا قد جلبنا معنا عصي البولو وكراتها [أي الكـرة والصولجان]، واوتاد خيام ورماح، واجرينا سباق رفع الاوتاد

امام مخيمنا، ثم قمنا انا ومحبوب وغـلام مرتضـى بلعبـة البولو على خيول النقيب. وعندما كنا نتسابق برفع الاوتـاد تجمع جمهور من المشاهدين لرؤية شيء جديد تماماً بالنسبة اليهم ولا يعرفونه. ولا ريب انها المرة الاولى التـي تجـري فيها لعبة البولو في الجزيرة العربية.

وجلبت في صباح اليوم التالي نياق الـى المخـيم وحلبـت امامنا، حلبت انا ومحبوب هذه النياق ايضاً. عمليـة الحلـب سهلة جداً اذا ماقورنت بالبقر او الجاموس. شربنا جميعـاً شيئاً من الحليب الذي كان طيباً جداً. وقال لنا نقيب الاشراف ان هذه النياق مخصصة للحلب ويجري اطعامها وفقاً لـذلك. واشار الى ناقة قال انها فقدت وليدها بعد ولادتـه مباشـرة، فاولعت بصبي عربي، ابن راعيهـا، واعتبرتـه صـغيرها. وبالرغم من مرور ثلاثة اشهر على فقدانها صغيرها، فانهـا ماتزال متعلقة بالصبي العربـي، وتتبعـه اينمـا سـار. واذا ماتظاهر احد من الناس باذية الولد فانهـا تظهـر غضـبها وتركض وراء مؤذيه. ولاتدر الحليب في الصباح والمسـاء مالم يحضر الولد ويلمس ضرعها اولاً. انه لمن الممتع حقا ان ترى ناقة تحب صبياً عربياً كأنه وليدها.

وبعد ذلك غادرنا الربضية ووصلنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة. وبعد اداء صلاة الجمعة، ذهب ابي لرؤية الفريق طاهر باشا.

السبت ١٥ نيسان - غادرنا البصرة في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً على الباخرة النهرية "مجدة". وتوقفنا في اليوم التالي ساعتين في العمارة حيث نزل قليل من ركاب الدرجة الثالثة. يبدو ان هذه المدينة واسعة جداً وفيها بيوت ذات طبقتين تواجه النهر.

الثلاثاء ١٨ نيسان - وصلنا الكوت هذا الصباح. وقد تغيرت المناظر تماماً ها هنا على ضفتي النهر. كنا نستطيع رؤية خيام سود على مقربة تعود للبدو - حوالي عشرين او خمس وعشرين خيمة مجتمعات - وكانت خيول ترعى العشب حول هذه الخيام.

وكان رجلان يرقبان كل قطيع من اربعين او خمسين فرساً. كانت الخيول طليقة تماماً، وكان على ظهر كل واحد منها غطاء اتقاء للبرد والذباب. وعلمنا من العرب الذين في الباخرة ان هذه الخيل جميعاً اناث، وقد ربطت الفحول بعيداً عنها. وكنا نرى كل اربعة او خمسة اميال خيام بدو سود مع

خيولهم. وعندما رأينا قطعان هذه الخيول ترعى العشب، تلهفنا لمغادرة الباخرة والذهاب لرؤيتها، ولكن لم يكن في طوقنا ايقاف الباخرة. وكانت النواظير الميدانية في ايدينا دوماً. وكانت المشاهد على ضفتي النهر اروع ما يمكن منذ ان غادرنا البصرة، ولكن اكثر ما امتعنا هي قطعان الخيول العربية التي كنا نراها كل مسافة اميال قليلة.

الخميس ٢٠ نيسان – مررنا هذا الصباح بسلمان باك. كان يعرف هذا المكان قديماً بالمدائن. وقد كانت مدينة واسعة جداً فيها مقر للحكم، ولم يبق منها الآن سوى جدران قليلة مهدمة. قريب الى هذه الخرائب مرقد سلمان. وقد كانت هذه المدينة قبل قرابة ١٣٠٠ عام واحدة من اكثر مدن البلاد العربية كثافة بالسكان. واشتهرت المدائن في جميع انحاء البلاد العربية بحكمائها وشعرائها ومؤلفيها ومركزها العلمي. اما اليوم فلا يرى فيها الا قليل من الاكواخ الطينية وبعض القطعان من الاغنام، بينما ذهل الرحالة قبل ثلاث مئة عام بثراء هذه المدينة الرائعة وجمالها وابهتها وفخامتها ومجدها.

وصلت الباخرة بغداد في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. كان على ضفتي النهر بيوت من طبقتين ملحقة بها حدائق صغيرة حسنة العناية جميلة الترتيب، فيها مختلف انواع الزهور واشجار الفاكهة، وكان الناس جالسين في شرفات بيوتهم يستمتعون بالمنظر الذي امامهم.

مررنا بعد فترة وجيزة بمختلف القنصليات الاوربية وعرفنا المباني التي تخص امماً مختلفة من اعلامها. رست باخرتنا امام دار الكمرك. وجاء لاستقبال والدي السيد داود افندي (ابن المرحوم نقيب الاشراف السابق) والسيد محيي الدين (ابن نقيب الاشراف الحالي) والسيد محمود افندي، واصطحبونا الى دار نقيب الاشراف. وكنا قد سمعنا ان موظفي الكمرك يسببون كثيراً من المشكلات للمسافرين بفتح جميع حقائبهم وفحص محتوياتها بدقة. وكنا نحمل معنا بعض المسدسات والبنادق وتوقعنا ان نواجه شيئاً من المزعجات، ولكن لم يتعرض احد لامتعتنا. وبعد ان قابلنا السيد النقيب ذهبنا الى مرقد "الغوث الاعظم"(١٣)، وقرأنا الفاتحة، ركبنا الى الدار الذي وضعه نقيب الاشراف تحت تصرفنا. وكان من طبقتين يحيط به بستان كبيرة. ودهشنا

لما دخلنا حجرة الاستقبال لما وجدناها مؤثثة حسب الطريقة الاوربية ويتجلى فيهـا الـذوق والترتيـب. كانـت الارائـك والكراسي مغطاة بحرير من طراز لطيف جداً، وينسجم لونها مع لون الستائر. وكانت طنـافس نفيسـة مفروشـة علـى الأرض، وزينت الجدران بالرسوم الملونة.

وكانت الى جوار حجرة الاستقبال حجرة نوم والدي التـي كانت تحتوي على كل وسائل الراحة والى جوارهـا حجـرة الطعام حيث وضعت منضدة لا ربعة اشخاص عليهـا مـلاءة بيضاء ومناديل مائدة – كان كل شيء في الحقيقة كاملاً.

نزل ابي في صباح اليوم التالي تمشـى فـي البسـتان الجميلة. فيها مختلف انواع اشجار الفاكهة، ولكنها لم تكـن تحمل ثمراً، اذ ان الموسم هنا يبدأ في شهر تموز. وتحتـوي البستان ايضاً على انواع مختلفة من الزهور. وكانت اشـجار البرتقال مزهرة امتزج عطرها الفواح بشذا الـورود. تنمـو اشجار البرتقال الى ارتفاع عظيم في هذه البلاد، ويكاد يبلـغ ثلاثة اضعاف ارتفاعها في حيدر آباد. وعندما دخلنـا ذلـك الجزء من البستان حيث زرعـت شـجيرات الـورد، ذهلنـا بحسنها فوقفنا طويلاً بلا حراك نتملى المنظر الأخاذ امامنـا.

انحنت اغلب الغصون حتى كادت تنكسر تحت ثقـل الـورود التي لاتحصى، كانت متفتحة بلون الدم. قال لنا ابي ان يأخـذ كل واحد شجيرة ويحصي الورود المتفتحـة فيهـا. حسـبتُ ستين وردة وابي ستاً وخمسين ومحبوب خمسين. ان الامـر في الحقيقة يتطلب مراجعة القاموس دوماً بحثاً عـن نعـوت مناسبة لوصف حسن هذا المكان من شجيرات الورد حيث بدا جزء كبير من تحت الاشجار احمر اللون مـن ورق الـورد الساقط من الزهور. واني لن اتولى هذه المهمة التـي انـا موقن اني لن افيها حقها اذ انها تتطلب قلمـاً متمكنـاً فـي الوصف نابضاً بالحياة ابرع من قلمي المتواضع هـذا الـذي ليس الا مبتدئاً في فن الادب. اينما توجهـت فـي البسـتان وجدت دلائل هبات الطبيعة السخية وكان كل شيء يتعلق بها مكتملاً، ولكن كتب من الناحية الاخرى الاهمال وعدم الاهتمام بحروف كبيرة. وبدت الطبيعة محرومة مـن يـد البسـتاني الماهر التي تقدم لها العون. وكانت الاشجار كثيفـة والارض بينها مليئة بالادغال – ولقد تحدث، في الحقيقة، الف شـيء صغير آخر عن الاهمال والحاجة الى العمل. الارض خصـبة

للغاية والمياة وفيرة. واني موقن ان مجال التطوير في هـذه البستان فسيح، لو وجد الاهتمام بمعونة الطبيعة.

ذهبنا في الساعة الثانية عشرة الى المسـجد المجـاور لمرقد "الغوث الاعظم". وتوجد فسحة صغيرة على جهة مـن المسجد محاطة بتعريشة، يجلس فيها نقيب الاشراف ووالـي بغداد والسر عسكر (أي القائد الاعلى للجيش) عنـد صـلاة الجمعة.. واخذنا السيدالنقيب الى ذلك المكان. وبعد الصـلاة قرأنا الفاتحة في المرقد ثم تمشينا الى دار السيد النقيب الذي يقابل المرقد، وكان الوالي والقائد الأعلى يؤدي مـع جميـع الموظفين وشخصيات بغداد صلاتهم في هذا المسجد في ايام الجمع ثم يذهبون بعد ذلك الى منزل نقيب الاشراف ويمكثون قليلاً.

يطلق اسم نقيب الاشراف على الشيخ الاكبر القائم بـامور مرقد حضرة "الغوث الاعظم" وله نفوذ كبير في بغداد ويحتل مركزاً مهماً في ادارة البلاد. وقد عين نائب رئـيس مجلـس بغداد، والرئيس هو الوالي. وثمة ثلاثـة اعضـاء آخـرين، وبهذا تدير اللجنة المكونةمن هؤلاء جميـع شـؤون ولايـة بغداد، وتعقد ثلاثة اجتماعات في الاسبوع.

وذكر ابي في بغداد للوالي والموظفين الآخرين رغبته في رؤية خيول من سلالات نبيلة مختلفة. فقالوا له ان كاظم باشا معروف بامتلاكه افضل الخيول في بغداد، ولكنه لسوء الحظ مسافر الآن. وتعهد الوالي وشخصيات أخرى ان يرسلوا خيولهم اليه لمعاينتها، وطلبنا ايضاً ان يجلب بائعو الخيل مايرغبون في بيعه من الخيل. وصرنا من اليوم التالي نرى جموعاً من الخيل امام بيتنا، بعضها تخص شخصيات مختلفة وبعضها تعود للبائعين انفسهم. اشترى والدي ثلاثة افراس لكي نستطيع الخروج راكبين عليها. وعندما رأى البائعون ان ابي كان يريد ان يشتري خيلاً، بدأوا يتقاطرون علينا زرافات، واغتنمنا فرصة رائعة في رؤية خيول عربية وعراقية، وبين لنا ابي المحاسن والمساويء في الخيل بشكل واضح. وصرنا نرىَ كل يوم، طوال اسبوعين، عدداً كبيراً من الخيل، ولكننا لم نرَ، باستثناء فرس واحدة، أي حصان لايضاهيه حصان في اصطبلات صاحب السمو. الفرس التي المعنا اليها آنفاً تعود الى داود بك بن محمد باشا، القائد العام. واعجب ابي بها كثيراً كان ارتفاعها ١٥ قبضة(١٤) واصيلة، مليحة جداً، ذات رقبة جميلة وترفع ذيلها بشكل

ممتاز عند عدوها. وبذل والدي قصارى جهده لكي يشتري هذه الفرس، غير ان داود باشا لم يبعها.

فكر ابي بعد ذلك بالذهاب الى الاماكن التي تربى فيها الخيول العربية. وعلمنا بعد استفسارنا ان اعداداً كبيرة من الخيول تربى في الموصل وما بين النهرين(١٥). يقتضي الوصول الى هذه الاماكن سفراً يستغرق عشرة ايام. فتحتم علينا ترك الفكرة وفكرنا بالذهاب الى اماكن قريبة كالمحمودية والمسيب والحلة، الخ... ولما علم مضيفونا واصدقاؤنا اننا ذاهبون الى داخل الجزيرة العربية، جاءوا الى ابي واخبروه ان الريف قد غمرته المياه، بسبب فيضان نهري الفرات ودجلة وان الرحلة التي ازمع القيام بها ستسبب له كثيراً من المضايقات. غير ان ابي قال انه جاء الى البلاد العربية مصادفة وان لم يذهب الى داخل البلاد الآن فلعله لن يكون قادراً على رؤيتها ابداً.

اهل مدينة البصرة وبغداد وكربلاء والنجف الاشرف والكوفة والحلة والمسيب والمحمودية الذين شاهدناهم في سفراتنا، يلبسون ثياباً تتكون من سترة طويلة تصل الكاحلين وحزام حول الخصر – وفوق ذلك معطف فضفاض يدعى

العباءة. اما لباس الرأس فيتكون من قطعة قماش مربعة، صنعت خصيصاً لهذا الغرض، تطوى في شكل مثلث فتعرف بالزبون[١٦]، وتغطي الرأس وتنحدر على الظهر وتغطي الاذنين ايضاً. وتثبت في مكانها بحبل سمكه نصف عقدة من وبر الجمال، ويضغط على الزبون (كذا) في دائرتين ويسمى العقال. اما لباس الترك الذين رأيناهم فيتكون من ملابس انكليزية اعتيادية مع الفيز[١٧] على الرأس. اما علماء الدين والمتعلمون فيلفون قطعة قماش حول الطربوش.

تتألف البيوت عموماً من طبقتين، وتؤثث الغرف بارائك (تخوت) تصف قريباً من الجدران الاربعة، ويغطي الارض بساط نفيس، وليس من المعتاد في هذه الاماكن ان يجلسوا على الارض. الفئة المرفهة من العرب والاتراك يتناولون الطعام على منضدة ولا تقدم صحون الاكل واحداً بعد آخر بل ترتب على المائدة قبل بدء الاكل. ويستعمل الاتراك سكاكين وشوكات. اما اهل العراق فلا يستعملونها. والقهوة منتشرة الاستعمال بشكل واسع.

السبت ٤ أيار في الساعة السابعة صباحاً، انطلقنا من بغداد. وارسل الألاي قومنداني، أي مفتش الشرطة، شرطيين

لحراستنا قائلاً ان الطرقات غير آمنة تماماً ومن المستحسن ان يكونا معنا. ركبنا من بيوتنا عربات حتى جسر بغداد الذي يربط ضواحي بغداد القديمة بالجديدة الواقعة على ضفتي نهر دجلة. ولما كان الجسر مكونا من زوارق فلم يكن من الامان عبوره في عربة. وقد كانت خيلنا حاضرة هنا، فتركنا العربة وعبرنا راكبين الخيل. كان في الواح الجسر صدوع واسعة مما تعرض الخيل للخطر بوقوع حوافرها فيها، غير اننا عبرنا بحذر شديد. وبعد ان اخترقنا بغداد القديمة، وصلنا الى منبسط من الماء (نتيجة الفيضان)[١٨] فتركنا خيلنا وعبرنا في قوارب مدورة تشبه السلة تماماً تسمى محلياً "القفة" ثم مشينا مسافة تقارب الميل ووصلنا الى منبسط آخر من الماء عبرناه بالزوارق ووصلنا الى محطة البريد حيث وّجّب علينا ان نسافر في عربات البريد التي تشبه الحافلة الكبيرة وفيها عريش اضافي قوي واذرع عريضة شدت بها اربعة خيول جنباً الى جنب بَعدتها. دهش ابي بفكرة اربعة دواب تجر بهذه الطريقة وقال انه سيتخذ هذه الوسيلة في عربات نقل امتعة صاحب السمو لدى عودته الى الوطن. وعندما قطعنا مسافة قصيرة في هذه العربات، اعترض طريقنا واد

عريض[١٩] أقيم عليه قنطرة عرضها اربع اقدام تقريباً لعبور العربات. وصل الماء في الجدول بسبب فيضان نهر دجلة الى مستوى القنطرة التي كانت في حالة سيئة، ولما قطعت عربتنا نصف المسافة تقريبا انزلقت العجلة اليمنى وغاصت في الجدول وبقيت العجلة اليسرى على القنطرة. وانزلق بغلان في الماء وبقي واحد على المنحدر والرابع في الطريق. وخشينا ان تنقلب العربة ولكنها لحسن الحظ لم تنقلب وبقيت في توازن قلق ودهشنا للسبب الذي منعها من الانقلاب. خف الينا بعض الناس الواقفين على الجانب الآخر وحملونا على اكتافهم ثم اخرجت البغال وسحبت العربة بصعوبة بالغة، ثم استأنفنا السفر، وكان علينا ان نعبر جدولا بين كل ميلين او ثلاثة اميال، وكان بعضها جافاً، بينما كانت الاخرى تحتوي ماءً.

المسافة بين بغداد وكربلاء قرابة ستين ميلاً، وفيها اربع مراحل حيث تستبدل البغال. وصلنا كربلاء في الساعة العاشرة مساء بعد رحلة مضنية، وكان نقيب اشراف بغداد قد هيأ لنا بيتاً مكثنا فيه. وفي صباح اليوم التالي ذهبنا أي "الدورغا" أي المرقد وصلينا هناك.

مرقد الامام الحسين محاط ببناء منيف فسيح مربع الشكل، في كل جهة منه باب عملاق قوي جداً. وحول الساحة بيوت جليلة من طبقتين يسكنها علماء الدين والطلبة. ضريح الامام ومنائره الاربع المذهبة في وسط الفناء المربع، وحول القبر سياج مربع من الفضة المشبكة.

وبعد ذلك ذهبنا الى مرقد حضرة العباس القريب وهو اصغر من الاول في بنائه. وبعد ان قرأنا الفاتحة فيه عدنا الى بيتنا في الساعة التاسعة. وفي المساء ركبنا الى الموضع الذي كان فيه مخيم الامام الحسين اثناء المعركة، ثم ذهبنا الى مرقد حضرة الحر.

وفي صباح اليوم التالي غادرنا بعربات البريد الى النجف الاشرف وهي تبعد خمسين ميلاً من كربلاء. كان الطريق في الصحراء جيداً جداً نوعاً ما. وتوجد "خانات" في كل اثني عشر ميلاً لراحة المسافرين. وكانت المياه في كل هذه المناطق بسبب الفيضان في الاسبوع الماضي. وبالرغم من انه جف الآن الا ان الطريق مازال رخواً جداً وتغوص عجلات العربات عميقاً في الاوحال ولذلك فقد كانت البغال تسير ببطء ومشقة. كانت الحرارة اثناء النهار شديدة جداً،

ولحسن الحظ كان النسيم لطيفاً فلم نشعر باثر الحرارة كثيراً. وصلنا النجف الاشرف في الساعة العاشرة مساء ونزلنا في الدار الذي هيأه لنا نقيب اشراف بغداد.

ذهبنا في اليوم التالي الى مرقد حضرة علي المرتضى الذي يشبه المرقدين في كربلاء من حيث بناؤه. وفي الضريح ثلاثة قبور لـ: علي المرتضى وآدم ونوح. وبعد قراءة الفاتحة تمشينا في المدينة قليلاً ثم عدنا الى بيتنا. واردنا الذهاب الى مدينة الكوفة ولكننا لم نستطع لان الطريق اليها غمرتها مياه الفيضان.

وزارنا عصراً قائم مقام او طالقدار النجف الاشرف مصطفى باشا. وسمعنا منه ان النهر قد فاض مرة اخرى في ليلة امس، وغرقت معظم الطرق كما حصل قبل اسبوعين، ولهذا السبب فان عربات البريد، التي كان مفروضاً ان تصل في الصباح، تأخرت لهذا السبب وسوف تتعطل وسائط النقل اياماً قلائل. وعندما سمع والدي ذلك قال انه لا ينوي البقاء اكثر من هذا بعد ان ادى الزيارة الى اضرحة الائمة، واذا كان من الممكن اجراء ترتيبات لتهيأة عربتين، فانه يود الرحيل في المساء. وكما قيل لنا في بغداد اننا لانستطيع

وصول غايتنا بسبب الفيضان، فاننا وصلنا النجف الإشــرف بطريقة او اخرى. وقال مصطفى باشا ان من الممكــن جــداً تدبير امر العربات، غير اننا سنواجه مصــاعب كبيــرة فــي الطريق بسبب الامطار الغزيرة التي ستجعل العربات عرضــة ان تغوص عجلاتها في الطين، ولكن ابي كان قد عقد العزم، فارسل مصطفى باشا العربات وغادرنا النجف الاشــرف فــي الساعة الثالثة عصراً. سرنا طوال الليل ووصلنا كربلاء فــي صباح اليوم التالي، ثم غادرناها في التاســعة زواليــة الــى المسيب، وبقينا نسير في طرق جيدة حتى الســاعة الثانيــة صباحاً، عندما وصلنا الى بقعة طغى عليهــا مــاء الفيضــان بشكل غزير مما صعب على البغال ان تسحب العربة في هذا الجزء المغمور بالماء بالرغم من المحاولات الممكنــة فــي مساعدتها، لذلك فككنا عدتها واخــذناها الــى مرتفــع مــن الارض. وباءت جميع جهودنا بالفشل في سحب العربة فــي هذه الارض المغمورة بالماء من الساعة الثانية حتى الرابعة. وقررنا في الساعة الرابعة، مادام الامر مستحيلا علينــا ان نخرج العربات، ان افضل مانقوم به هو ارسال رجــل الــى المسيب التي تبعد مسافة اربعة اميال لكي يجلب لنــا بعــض

الحمالين لنقل امتعتنا اليها. وعلى هذا فقد ارسلنا صوبه دار[٢٠]عبد القادر (من فوج ميسارام) واسماعيل افندي في هذه المهمة.

وصل الصوبه دار قبل شروق الشمس مع بعض الموظفين والحمالين ونقلنا الحمالون على ظهورهم الى ارض يابسة وتركنا العربات في محلها، وتوجهنا الى المسيب على خيل وبغال. وقررنا ان نتجه جنوباً الى الحلة وبابل، فقد كنا نرغب في رؤية الآثار المهملة لمدينة بابل القديمة، وقد سمعنا ايضا ان العشائر العربية التي تمتلك اعداد كبيرة من الخيل تسكن في تلك المنطقة. توجهنا الى الحلة التي تبعد ٢٤ ميلاً من المسيب في الساعة التاسعة صباحاً في زورق شراعي، وبما اننا كنا نسير مع التيار فان تقدم الزورق كان حسناً. في الساعة الثالثة عصراً وصل زورقنا قرية تقع على ضفة النهر. لاحظنا سحباً سوداً في السماء باتجاه الغرب، وشاهدنا ايضاً عاصفة ترابية تتقدم نحونا، ولم نر شيئاً على مد البصر غير الغبار.

قال ربان الزورق الشراعي الذي يسمى صاحب السفينة ان عاصفة ترابية ستمر علينا فحول الزورق الى الشاطيء

بسرعة عظيمة. وماكدنا نلتجيء الى مقهى قريب حتى اجتاحت العاصفة، التي تنبأ بها صاحب السفينة، المكان وظلت محتدمة شيئا من الوقت. واظلمت الدنيا ولم نستطع رؤية شيء غير الغبار في كل مكان.

كانت الريح تهب بقوة شديدة بحيث بدت اشجار التوت التي امامنا كأنها ستنقلع من جذورها. وما كادت العاصفة تهدأ قليلا، حتى انذر رعد بعيد باقتراب المطر الذي انهمر مدرارًا فابتلت الاشياء التي تركناها في السفينة. ولحسن حظنا فان العاصفة، بالرغم من عنفها، كانت قصيرة وانجلت سريعاً، ومع ذلك لم يوافق صاحب السفينة على المسير اذ انه كان يخشى غرق السفينة، على انه بعد مساع كثيرة في اقناعه، استأنف الرحلة دونما رغبة منه. وكانت الريح مواتية، فرفعت الاشرعة وتقدمنا مسافة قصيرة بسرعة عظيمة، ولكن الريح غيرت اتجاهها فجأة وبدلاً من ان تسير السفينة في وسط النهر اتجهت نحو الشاطيء. وحاول العرب انزال الاشرعة وهم يتحدثون كثيراً ويصيحون، صاخبين، قبل ان ينجحوا في مسعاهم ارتطمت السفينة بقوة بالشاطيء. ولحسن الحظ لم تكن على ضفة النهر صخور، بل طين

وتراب انهمرا في السفينة. ومرت الازمة دونما ضرر خطير، وفرح صاحب السفينة وهتف قائلاً بالعربية: مسنا الضر ومرّ ولم يترك فينا اثراً. ثم صار النواخذة يسحبون السفينة بالحبال ويدفعونها بالمرادي في الوقت نفسه.

وصلنا بابل في حوالي الساعة التاسعة مساءً. والحلة على بعد اربعة اميال من بابل وكان عملدار[٢١] المسيب قد خابر من اجل تأمين راحتنا – وامضينا الليلة في راحة تامة في بيت احد اصحاب الاراضي اسمه ملا ابراهيم. وزرنا في صباح اليوم التالي آثار بابل التي انشأت في سنة ٢٢٣٢ ق.م عاصمة لارض شنعار. وبلغت اوج مجدها اثناء حكم نبوبولا صر وابنه نبوخذ نصر، وكما يقول هيترودواتسن[٢٢] انها كانت مربعة الشكل طول كل ضلع منها اربعة عشر ميلاً. ويجري الفرات من وسط المدينة، وعلى ضفتيها مرافيء. وكانت المدينة محاطة بسورين، وعلى الضفتين تحصينات ثانوية. وقد جرت في السنوات الأخيرة الماضية تنقيبات وكشف عن بعض القصور والبيوت الخربة، وعن تماثيل ونقود قديمة نقل اغلبها متحف اسطنبول والى بعض المتاحف الاوربية الكبيرة، ولكن بعض التماثيل الكبيرة

مايزال يرى بين الآثار واشهرها تمثال اسد تحته انسان، ويظن ان ذلك يمثل قوة نبو خذ نصر. اخذنا قليلاً من الطابوق من هذا المكان للذكرى، وعليها كتابة غريبة، لعلها اسم الملك نبو خذ نصر فيقال ان كل طابوقة مكتوبة تحمل اسمه.

تركنا بابل في الساعة التاسعة صباحاً في عربات البريد ووصلنا المحمودية في حوالي الثانية عشرة. وعلمنا ان على بعد قريب غمرت المياه قسماً كبيراً من الطريق، واستعملت الزوارق هناك للعبور. وصلنا الى ذلك المكان في الساعة الرابعة عصراً وتركنا عرباتنا وذهبنا في الزوارق. فاض ماء الفرات وغمر هذه المنطقة، استغرق عبورنا الى الجهة الاخرى حيث الارض اليابسة ساعة ونصف الساعة. ولسوء حظنا فاتتنا عربات البريد في هذا المكان فقد وجدنا انها غادرت قبل ساعة من وصولنا. وعندما سمع والدي ذلك، قال لحبيب عبد القادر ان يذهب الى خيم البدو التي يمكن رؤيتها على بعد قريب ويتفق معهم على نقلنا. ذهب عبد القادر في مهمته وعاد بعد نصف ساعة تقريباً ومعه فرس

وحماران حصل عليها بمشقة من احد البدو وهو مالكها الذي جاء يصحبها.

تركنا جميع خدمنا وامتعتنا في البرية بمسؤولية الدكتور عناية علي خان. ركب والدي المهرة البدوية وعليها سـرج عتيق شد به حبل رفيع بدلاً من الركاب. وركبنا انا ومحبوب الحمارين. وبدأنا رحلة العشرين ميلاً الى بغداد، التي كانـت متعبة، مليئة بالمغامرات. ونصب صبي بدوي، يدعي بمعرفة الطريق، نفسه دليلا لنا. كان تقدمنا بطيئا بسبب المشاة الذين معنا. وبعد ان قطعنا نصف الطريق خيم الظلام وكان علينـا ان نستدل طريقنا في ضوء النجوم الباهـت. ولا حـت فـي الساعة التاسعة اضواء بغداد مـن بعيـد، وفرحنـا بفكـرة وصولنا الىبيتنا بعد وقت قصير والجلوس الى تناول عشـاء شهي، ولكن لسوء حظنا لم يتحقق ذلك لان دليلنـا الصـغير ضيع طريقه في الظلام ووجدنا انفسنا نسـير فـي سـواقٍ وحقول مزروعة حديثاً ولهذا كانت الارض موحلـة وسـاء الطريق جداً بحيث لم تستطع الفرس التي كان يمتطيها والدي والحمير التي كنا نركبها خطوة واحدة دون ان تكبو فترجلنـا وواصلنا السير على ارجلنا. وكان من المستحيل علينا تمييز

طريقنا بسبب الظلام، فجعلنا انوار بغداد نجومنا الدالة. وبعد مشي ثقيل في الحقول فترة من الزمن وصلنا الى منبسط من الماء في وسطه حائط ارتفاعه قرابة اربعة اقدام وعرضه قدم ونصف القدم، وكان في اغلب الظن حداً فاصلاً بين بساتين غمرتهما مياه الفيضان.

قال لنا دليلنا انه ينبغي علينا ان نصعد الحائط، وكنا مضطرين لاتباع ارشاداته فصعد ابي اولاً وتبعناه، وقاد البدوي الآخر وحبيب عبد القادر الفرس والحمارين في الماء والطين قدر طاقتهما.

لم يكن من اليسير قط السيرعلى هذا الجدار الضيق في الظلام، اذ ان زلة قدم واحدة توردنا الماء. بدا نصف الميل هذا كأنه لن ينتهي ابداً. وكانت الريح في الوقت نفسه قارسة البرد، فكان ذلك مرهقاً لأبي الذي كان مايزال ضعيفاً بسبب حادث سيارته. وبعد مرورنا في بعض الازقة الضيقة والمظلمة في حوالي الساعة العاشرة مساءً وصلنا الجسر على نهر دجلة، حيث كان في الجهة الاخرى منه مقهى كبير، جلس فيه مئات من العرب يشربون الشاي والقهوة.

دخلنا المقهى وشرب كل منا قدحاً ساخناً من الشاي، مما اعاد الحياة الينا، ثم وصلنا مقرنا في الساعة الحادية عشرة ليلاً. ولما كنا قد ارهقنا طول السفر في ذلك اليوم فلم نتوان عن الذهاب الى الفراش بعد العشاء. وجلب رجالنا امتعتنا التي تركناها خلفنا في اليوم التالي.

في زمن الخليفة المنصور، كانت الكوفة مقر الحكومة العربية، وبما ان مناخ الكوفة لم يكن صحياً وكان الماء نزراً في تلك البقاع، ارسل الخليفة عدداً من رجالاته الى اماكن مختلفة من البلاد العربية ليختاروا موقعاً مناسباً لبناء عاصمة جديدة. فخرج، بناء على ذلك، كثيرون يبحثون، وبعد زمن عاد رجل منهم يدعى علي بن يقطين باخبار بقعة خصبة من الارض على ضفة دجلة، لا مسكن فيها سوى معبد يقيم فيه برهمي. وقال ان المكان بديع المنظر وان مناخه يساعد على الصحة وفيه اشجار فاكهة كثيرة تنمو على ضفتي النهر. فلما سمع الخليفة بهذا الوصف، خرج بنفسه ليلقي نظرة الى المكان – الذي تقع فيه بغداد اليوم. استحسن المكان كثيراً وامر مهندسيه ان يرسموا خطة المدينة الجديدة.

وتأهب المنصور للعودة الى الكوفة من اجل ان يرسل المواد منها لاقامة عاصمته الجديدة. وكان احد الامراء خارجاً للصيد فمر بالمعبد الذي قرب النهر ووجد برهمياً منهمكاً في عبادته. وعندما رأى البرهمي الرجل يقترب منه، سأله عن سبب اقامة المنصور مخيمه قرب دجلة، فاجاب الامير ان الخليفة المنصور اعجب بالمكان كثيراً وانه يتأهب لبناء مدينة عليه. فلما سمع البرهمي العجوز ذلك، قال: " اذهب وقل له انه لن يستطيع تحقيق امله، لانني سمعت من اسلافي ان الرجل الذي قدر له بناء مدينة في هذا المكان الجميل اسمه مقلاص". فدهش الامير كثيراً لدى سماعه ذلك، فقد كان مقلاص مشتهراً في البلاد العربية قبل مئتي سنة. فتقدم الامير الى المنصور ووقف امامه متفكراً. وعندما رآه الخليفة في هذه الحال سأله عن سبب تفكره فقص عليه ما سمع من البرهمي، فدهش المنصور كثيراً وقال: " اما والله الذي خلقني انا مقلاص". فتعجب الامير من قول الخليفة، فروى المنصور له الحكاية كما يأتي: عندما كنت صغيراً اتفقت مع ابناء عمومتي الصبيان ان يدعو كل واحد منا اصحابه الى طعام العشاء بالتناوب. فكان الصبي يدخر دنانير

قليلة ليشتري طعاماً يدعو اليـه الآخـرين. جـاءت نـوبتي لضيافتهم ذات ليلة فلم اجد مالاً انفقه علـى شـراء طعـام. وكنت اعلم ان عمتي تخفي قليلاً من الدنانير، فلم يكـن لـي معدى من اخذ تلك الدنانير واشتريت طعاماً بها دعوت ابنـاء عمومتي اليه. وبعد ايام قلائل احتاجت عمتي دنانيرها التـي اخفتها فلم تجدها. وحامت شبهاتها حولي وعنـدما رأتنـي صاحت بي: " يامقلاص انت سرقت نقودي" فافضيت لها بمـا فعلته. وبينت لها ماوجـب علـي عملـه لضـيافتي ابنـاء عمومتي. وظلت منذ ذلك اليوم حتى نهاية حياتهـا تنـاديني مقلاصاً، ولكن لم يعلم بذلك احد سواها وسواي"[٢٣].

ولما رويت القصة للبرهمي الحكيم، اخذ طالع المنصور في النجوم، فقال: " هذا هو حقاً من قدر له ان يؤسس المدينـة على ضفة دجلة". وبعد سنوات قليلة اكتملت المدينة وسميت بغداد، او بستان العدل، ونقل المنصور اليها مقـره وعـاش فيها سنوات عديدة[٢٤].

رأى والدي اغلب الخيل في بغداد ورغب كثيراً في شـراء حصان بني محمر نجدي، غير ان صاحب الحصـان، وهـو عربي ثري، رفض رفضاً قاطعاً بيع الحصان قائلاً: "يمكنك ان

تأخذ أيِ ما يعجبك من هذه الخيــل. ولكننـــي لا اســمح لاي حصان من نسل الصقلاوي الجدرانية ان يخــرج مــن هــذه البلاد، هذا النسل الخاص، من تربية فخذ عشيرتنا، الذي لــم يحصل العرب على مثيل له". ولما رأى والدي عــدم امكــان اقناع هذا العربي بالتخلي عن الحصان، فلم يجد افضل مــن ان يطلب الى حضرة السيد محمود افندي (ابن حضرة نقيــب الاشراف)، المرشد الديني بجميع القبائل العربية الذي يكنون له احتراماً عظيماً، ان يتوسط في القضية. وعندما ذهب هذا الرجل الديني بنفسه الى صاحب الحصان وطلب منه، لم يجد العربي مناصاً من الاذعان، وهكذا اتيحت الفرصة لوالدي ان يشتري الحصان بـــ ٢و٥٠٠ ربية. كان اسمه "فالح" وينتمي الى نسب خيل الثوسية الصقلاوية الجدرانية عبيان الشرق. واعطى العربي الى والدي نسب "فالح"، مبينا ان هذا النســب محفوظ فترة طويلة لدى عائلته – منذ ايام الخلافة العباســية في بغداد. وظل يتحدث عن موضوع الخيل بعــض الوقــت، وقال انه، حسبما يعلم، لا يعرف أي حصان من هذا النســب الخاص قد ارسل الى أي بلد اجنبي قبل هذا.

اطلق العربي الحصان بلا سرج او لجام فراح يجري حولنا مرفوع الرأس والذيل، وبدا كأنه رسم كالصورة الفوتوغرافية المنشورة هنا.

واشترى ابي حصاناً آخر، رمادياً جميلاً اصيلاً من شـخص اسمه صالح بن سعيد وكان معروفاً في بغداد كلهـا. ينتمـي هذا الحصان بنسبه الى خيل عنزة الحمدانية، واسمه "سامر". وقال صالح بن سعيد ان اخاه ارسـل الـى اسـطنبول قبـل سنتين، لسلطان تركيا.

ودع والدي في ١٢ أيار اصدقاءه العرب جميعـاً، وكـذلك الميجر رمزي، المقيم البريطاني في بغداد، والسيدة رمـزي، زوجته.

قبل يوم رحيلنا، ارسل حضرة السيد عبد الـرحمن (نقيـب اشراف بغداد، مع والدي حصاناً كميتـاً جمـيلاً هديـةً الـى صاحب السمو النظام؛ وقد ارسل مـع خيلنـا الاخـرى فـي الباخرة في ١٢ أيار. وابحرنا الى الهند فـي ١٣ أيـار فـي الباخرة "خليفة". وفي اليوم الثالث من رحيلنـا أي يـوم ١٦ أيار رست الباخرة في البصرة.

وجاء السيد رجب افندي الى باخرتنا واخذ والـدي فـي زورق الى قصره القريب، ثم جلبت بـاخرة صـغيرة بقـرب باخرتنا ونقلت جميع خيلنا الى باخرة كبيـرة مسـافرة الـى الهند. وفي ١٩ أيار غادرنا البصرة الـى بـومبي. ووجـدنا البحر هائجاً والجو مكفهراً. وصـلنا بـومبي، بعـد رحلـة استغرقت تسعة ايام، في ٢٨ أيار. وارتحنا فيها يومـاً ثـم امضينا اسبوعين في مهابلشوار في بيـت جميـل خصـص لوالدي يشرف على منظر بديع وكان الجو لطيفاً صحياً.

غادرنا مهابلشوار في ١٧ حزيران ووصـلنا حيـدر آبـاد سالمين، وفي اليوم الخامس توجهت الى نظام آباد لا ستأنف مهام وظيفتي قائم مقاماً لتلك المنطقة.

الحصان العربي

اشرت في قسم سابق من الرحلة الـى الارشـادات التـي تلقيناها عن الحصان العربي وعاهدت ان اقـدم تفصـيلاتها وهانذا افي بعهدي.

كانت طريقتنا اليومية في تلقي المعلومات كمـايلي: اولاً، نأخذ قسماً مـن الحصـان، ونتنـاقش محاسـنه ومسـاوئه

بالتفصيل. ثم نعرج على الامـــراض التـــي يرثهـــا فنـــدونها وتشرح اعراضها مع ذكر المعالجة التي يجريهـــا البيطـــري الصحي المغولي، ويتم علاج هذا الثاني بادوية السوق التي يتيسر الحصول عليها في كل مكان تقريباً في الهند. وسادون هنا ماشرحه لنا والدي عن فم الحصان العربي وعينه.

الحصان النجدي، بين الخيول العربية، يستدق فمـــه حتـــى يبلغ حجماً صغيراً، لذلك فان من الصفات الرئيسة في الخيول العربية النجدية صغر خطمها. فمحيط خطم الحصان النجـــدي العربي الجيـــد ٢-١٤ او ٣-١٤ وينبغـــي الا يزيـــد علـــى ١٤٢/١ عقدة. وليس من اصناف الخيول الاخرى، باستثناء الاسترالية والعراقية، حتى العربية الاخـــرى مـــا يمكـــن ان تضاهي النجدية بمثل هذه الافواه المســتدقة. ويســتحب ان يكون المنخزان واسعين والجحفلتـــان (الشـــفتان) رقيقتـــين لطيفتين، وان تنطبق العليا على السفلى تمامـــاً، والا تتهـــدل السفلى، وان يكون الفك الاسفل عريضا مع اتساع بين عظام الفك والا يحتوي لحماً كثيراً. ويتناقل العرب حكاية عن عربي لديه حصان نجدي اعتاد ان يسقيه بالقـــدح الصـــغير الـــذي يشرب منه، مما يدل على جمال فم الحصان العربي النجدي.

وشرح لنا ايضاً امراض الفم ومعالجتها، ولكن نظراً لضيق المجال، فاني مضطر الى تركها.

يعتمد الحكم على الحصان العربي كثيراً على عينه. وفي الوقت الذي يمكن تحديد النقاط الاخرى في الحصان، ليس من الممكن وضع قواعد دقيقة وثابتة للحكم على الحصان من عينه. يمكن للحكم الجيد ان يحكم على الحصان من عينه نتيجة للخبرة والتجربة فقط، ويمكن في الوقت عينه ملاحظة الصفات الآتية:

١-هل الحصان هادىء ام شرس؟

٢-هل هو طيّع سهل الانقياد وقابل للتعليم، ام يحتاج وقتاً طويلاً للتعلم؟

٣-هل الحصان عصبي المزاج ام جفول، وخجول؟

٤-هل هو بصحة جيدة ام لا؟

يقدم لون غشاء باطن عين الحصان معلومات نافعة في تشخيص بعض انواع الامراض. ويتضح تماماً انه لا يمكن الحصول على معلومات كثيرة من أي جزء آخر من اجزاء الحصان بملاحظة مايخص صحته ومزاجه كما يمكن ذلك من العين.

ظل ابي ثلاثة ايام يناقش الخصائص ويعين محاسن ومساويء الخيل العربية المولودة في اجزاء مختلفة من البلاد، كالخيول العربية النجدية والعنزية التي حرصنا انا ومحبوب على تدوينها. وبين لنا ابي ايضاً ان تجار الخيل العربية يطلقون على جميع الخيل التي يجلبونها الى بومبي اسم الخيول العربية، وهذه ليست صحيحة، لان كثيراً منها ولدت قرب بغداد وتعرف بالعراقية، وهي طبعاً عربية ولكنها ليست من ضرب رفيع. ومن العسير جداً تعيين صنف الحصان العراقي الذي اختلط دمه ونسله، ولكن لايوجد حصان كامل الصفات.

يمكن تقسيم مناطق تربية الخيل في البلاد العربية الى ثلاثة اقسام كما يأتي:

١-في الشامية او بادية الشام وفيها تربى افضل الخيول العنزية، ويؤخذ عدد منها الى دمشق لبيعها.

٢-الارض الواقعة شمال القسم الاوسط من بين النهرين العظيمين دجلة والفرات التي يطلق عليها العرب اسم الجزيرة وفيها الخيل الشمرية.

٣-العراق او ارض دجلة وتشمل ولايتي بغـداد والبصـرة حيث يغرم البدو كثيراً بخيولهم ويهتمون بها كأنها اولادهم، ويحرصون كثيراً على عدم ادخال دم غريب فيها بتلقيحهـا باي نسل آخر.

واني لا استطيع ان اقول اني ومحبوب لم نستطع ان نلـم بجميع تفاصيل المعلومات الثمينة التي قدمها والدي ولكننـا سعينا الى فهم كل شيء قاله جهد مسـتطاعنا. ولكننـا اذا ماذهبنا الى البادية ورأينا الخيول مـن الانسـاب النجديـة والعنزية والطقلانية والغزلانية في مواطنها ونلاحظ اقسامها المختلفة فان التعليم الذي تلقيناه، نظرياً لحد الآن، سـيكون تطبيقياً واني على يقين انه سيضيف كثيـراً الـى معرفتنـا بالخيول العربية.

واني اسعى الى الاحتفاظ بكل المعلومات التي منحني اياها والدي عن الخيول العربية، وكل ماسمعناه ورأيناه في بغداد ومما افدناه من رحلتنا الى كربلاء والنجف الاشرف والحلـة وغيرها.

يقع في وسط الصحراء العربية الجبل وحايل وشمر والـى الجنوب منها عنزة ونجد اعتاد سكان هذه المنـاطق قبـل

قرن تقريباً ان يمتلكوا الخيول العربية الفارهة التي كـــانوا يركبونها في جماعات كبيرة ويتجهون الـــى المـــدن علـــى ضفاف نهريِ دجلة والفرات، والى المنطقة الواقعة بينهمـــا المعروفة بالنهرين ويفيدون مما بها وينتقون افضل خيولها وبهذا صاروا يمتلكون الصفوة المختارة من خيول العـــراق. ومما هو مشهور ان اهل البادية حريصون في انسابهم، فلا يتزوجون خارج اهليهم من اجل المحافظة على نقاء النسب.

ويسلكون السلوك نفسه فـــي مـــايخص تربيـــة خيـــولهم، ويفضلون ترك الفرس دونما مهر على تلقيحها من حصـــان غير اصيل، ولهذا فانهم يمتلكون انقى الاعراق من الخيـــول العربية حتى الوقت الحاضر.

ويتخذ البدو الطريقة الآتية في رعي خيـــولهم: يبـــذرون الهرطمان ويطلقون دوابهم في الحقل عنـــدما يبلـــغ طـــول النباتات ٩ او ١٠ عقد لكي ترعى فيها، وتظل فيها مدة ثـــم تمنع عنها حتى يترك النبات ليعاود نموه. وتكـــرر العمليـــة مرتين او ثلاث مرات قبل ان يترك الحاصل نهائياً لكي ينمو. وتبدو هذه العملية ممارسة جيدة جديرة بالتجريب في الهنـــد وفي غيرها.

اما في مايخص بيع وشراء الخيول، فيقال انه قبل سنوات عندما لم يكن ثمة طلب عظيم على الخيل العربية، فان اهل شمر وعنزة ونجد كانوا يأخذون خيلهم الى بغداد والبصرة وبيروت ودمشق والمدن الكبيرة الاخرى لبيعها. اما في السنوات الخمسين او الستين الماضية فان الطلب ازداد تدريجاً، وصارت خيول اكثر تصدر الى بومبي. واخذ تجار الخيل في بومبي او وكلاؤهم يذهبون الى داخل الجزيرة العربية ويشترون الخيل من البدو.

اخبرنا السيد محمود افندي ابن نقيب الاشراف في بغداد انه اذا اراد مالك ارض عربي ثري او تاجر يحب الخيل، حصاناً عربياً من أي نسب امثال صقلاوي جدران او صقلاوي بير او غيرهما فانه يرسل وكيله الى الصحراء واذا وجد الحصان من النسب الذي جاء يبحث عنه، فانه يشتريه – ويدفع في الغالب ثمناً طويل الاجل، ولكنه اذا لم يعثر على بغيته فانه يبحث عن فرس يلقحها حصان من النوع الذي يريده ويتفق على ثمن المهر الذي لم يولد بعد. ويدفع المبلغ لصاحبه، ويبقى مع الفرس حتى يولد المهر. واذا صادف ان كان مهراً فانه يأخذه واذا كانت مهرة فان

صاحب الفرس يعيد المال الذي دفع مقدماً اليه. ويستطيع المرء ان يحكم من هذه الحقيقة ان العرب يقدرون انساب الخيل الجيدة.

استقيت المعلومات الآتية من عربي محترم من قبيلة شمر في مايخص تربية الخيل لدى البطون النجدية والشمرية والعنزية. من بطون العشائر الكثيرة التي تقسم اليها نذكر اهمها:

١- السلوم ٢- خبيث ٣- عفاريت ٤- جودي ٥- جدران ٦- فداجة ٧- جرداوة ٨- زواج ٩- تومان ١٠- ماجود.

ومن البطون التي ذكرت آنفاً فداجة وزواج وهما اكبرها وتمتلكان قرابة ٢٠٠٠٠ فرس. اما الباقون فيمتلكون قرابة ٥٠٠٠ او ٦٠٠٠ لكل منه.

وهذه البطون تمتلك اعداداً كبيرة من مختلف انواع الخيل، ولكن الآتية منها هي اكثرها شهرة.

١-صقلاوي جدران ٢- مبيان ٣- مريقي ٤- نجمة الصبح ٥- عبية الشرق ٦- شواي مهتل الصبح.

ويعزل البدو الفحول عن الافراس. وهم يحفظون نسب كل فحل بحرص شديد وحماسة عظيمة لدرجة ان بعض الفحول ترقى بانسابها الى خيل الخلفاء الراشدين وخلفاء بني العباس. وتبقى الفحول لدى شيخ القبيلة ويكون مسؤولاً عنها. ويحاول بعض الناس احياناً تسفيد افراسهم من هذه الفحول سراً، غير انهم لايفلحون عادة.

واغرب شيء انهم لايدونون نسب الفحول الا نادراً، ولكن لكل شيخ ثلاثة او اربعة من العرب الثقات الذين يعرفون نسب كل حصان عن ظهر قلب. وثمة حقيقة أخرى اشد غرابة وهي انه عندما يسفد فحل فرساً فلا يحفظ بذلك سجل مدون، ولكن العرب ذوي الحافظة المذهلة المعروفين بأسم "قول بان"(٢٥) يتذكرون هذا ايضاً. ذاكرتهم عجيبة جداً بحيث اذا جاء احد الى شيخ القبيلة يبغي شراء خيل فان الشيخ يأمر النسابين ان يجلب كل منهم مالديه من خيل تتراوح مابين منتين الى ثلاث مئة حصان،

وكلما مر حصان بالشيخ فان العربي الواقف قربه، وبيده عصا طويلة يريح عليها يديه والسلسلة، ويهتف بأسم أب الحصان. وقلما لا يعرف الرجل اسم اب مهر او مهرة، واذا

حدث ان كان يجهل اسم الحصان الذي سفد الفرس ولايعرف اسم والد الحصان لذلك فانه يخجل من جهله يطرق مخاطباً الشيخ قائلاً: الله وحده يعرف اسم ابيه.

سيعجب القارىء لحقيقة امتلاك عربي غير متعلم يسكن الصحراء مثل هذه الحافظة فيذكر اسماء وعلامات ثلاث مئة او اربع مئة حصان انجبت من سلالات مختلفة ويعرف شجرة انسابها ايضاً، غير اننا لو نظرنا الى تاريخ البلاد العربية قبل الف وثلاث مئة عام فسنجد ان راعياً اعتيادياً امياً من عرب البادية في تلك الايام يستطيع ان ينشد الآف الابيات من الشعر عن ظهر قلب، كل راع يحفظ قصائد وابياتاً جميلة الفكر والمشاعر بلغة بديعة. بدوي اليوم سليل اولئك حفظة الشعر، فلا عجب اذا استطاع سليل الاجداد ذوي الذاكرة القوية ان يتذكر انساباً طويلة للخيول التي يحبها كثيراً.

اعتدنا ان نسمع ان العلف في الجزيرة العربية نادر وانهم يعانون من الحاجة اليه، ولكن الامر في الحقيقة ليس كذلك، عدا مايخص القبائل التي تربي الخيل المستقرة حول الجبل وفي شمر. على انهم في الخمسين اوالستين سنة الماضية سكنوا منطقة النهرين (جزيرة الموصل) فتوفر العلف لخيلهم

منذ ذلك الحين. لان موطنهم الحالي يقع بين نهري دجلة والفرات الذي لايجف في أي وقت من اوقات السنة، وتنمو التمور والحبوب بوفرة على طول ضفاف النهرين.

مناخ العراق الذي تقع فيه بغداد والبصرة وكربلاء والنجف الاشرف ينقسم الى الفصول الآتية:

الخريف	شباط وآذار ونيسان
الجو الحار	ايار وحزيران وتموز
فصل الامطار	آب وايلول وتشرين الاول
الجو البارد	تشرين الثاني، كانون الاول، كانون الثاني(٢٦)

ولا يكون علف الخيول في الحر وفيراً، لذلك فان اولئك الناس في ذلك الفصل يرحلون الى ضفاف الانهار حيث يوجد العلف. وتتعذى الامهار والمهرات على حليب امهاتها ستة شهور وتعطى احياناً حليب الماعز ايضاً. وتتجول طليقة مع امهاتها في الصحراء.

اكتشفت شيئاً غريباً للغاية وهو ان الخيول اذا بلغت سنة ونصف السنة او سنتين، ذكوراً او اناثاً، فانها تتزاوج في

هذا العمر الصغيروان الافراس تلد ذكوراً بشكل ثابت. ولهذا فان الامهار اذا بلغت عمراً يمكن ان تستغني فيه عن حليب امهاتها، فانها تعزل عن بقية الافراس، وتباع جميع الخيل التي تزيد على سنتين عمراً الى التجار الذين يتوافدون من جميع انحاء العالم.

سمعت من عرب محترمين، ثقات، يعتمد على معلوماتهم ان تجار الخيل العربية لايشترون الخيل في الجزيرة العربية بثمن بخس كما يتصور بعض الناس الذين يذهبون لشرائها في بومبي. تكلف البديلة الجيدة الجيش عادة من اثنتي عشرة ليرة الى خمس عشرة ليرة. (الليرة عملة تركية تساوي نحو اربع عشرة ربيَة) فهذه الخيول البديلة تكلف في البلاد العربية حوالي ١٦٨ الى ١٩٦ ربّية لكل حصان. ويتوقف ثمن النوع الافضل من الخيول العربية على النوع ونقاء الدم.

عندما زرنا الزبير رأينا حصانا من نسل نجدي، عمره سنتان، يعود الى خالد باشا. سأل ابي عن كلفته، فقال له خالد باشا انه دفع ٨٠ ليرة ثمناً له او نحو ١١٢٠ رُبيّة.

واعجب ابي بذلك الحصان ودفع ١٥٠ ليرة عنه ولكن خالد باشا لم يوافق على بيعه حتى بمثل ذلك الثمن.

وسأل والدي عن اسعار الخيل في بغداد ايضـاً ووجـد ان الخيول العنزية او الشمرية الاصيلة لا يمكن شراؤها باقـل من ٥٠ ليرة. ويمكن بطبيعة الحال شراء خيل عراقية جيدة نوعاً ما باسعار متهاودة.

حكى عربي محترم لوالدي ان نوع الخيـول العربيـة قـد تدهور، بصورة عامة، في صفاته اثنـاء السـنوات القليلـة الماضية. وان الجزيرة العربية لم تعد تنتج خيـولاً عربيـة اليوم كما كانت في الايام الخوالي. وكان أبي متلهفاً لمعرفـة السبب لعدم ارسال خيل عربية اصيلة حقاً الى بـومبي كمـا كانت ترسل سابقاً. واستفسر مـن عـدة اشـخاص – ذوي سلطة عليا، امثال السيد محمود والسـيد ابـراهيم افنـدي، البغداديين، وتلقى ايضاحاً ان الخيول العربية الاصيلة بلغـت اوج كمالها في ايام الخلافة الاموية، ثم بعـد ذلـك جـرى تهجين الخيول الاصيلة النقية الدم بخيول غير اصـيلة ظنـاً منهم انهم سيحصلون علـى خيـل اجمـل واكبـر حجمـاً، فاختلطت بذلك الانساب بصورة غير مقيدة.

وتعرف ذرية الخيول العربية والعراقية كما يأتي:

١- اذا كان الاب عربياً والام عراقية فـان المهـر يعـرف بالهجين.

٢- اذا كان الاب عراقياً والام عربية فـان النتـاج يعـرف بخبرو.

٣- اذا كان الاب والام غيـر عـربيين فيعـرف الحيـوان بالاعجمي.

٤- واذا كان كلا الوالدين من نسل عربي صرف فان المهر يدعى عتيقاً.

دخل نتيجة لهذا التزاوج كثير من دماء الخيل العراقية في دماء الخيل العربية الاصيلة وخصوصاً في بغداد والبصـرة والمسيب والحلة وغيرها، بيد ان قبيلتـي عنـزة وشـمر. حافظوا على انساب خيولهم نقية تقريبـاً. ومـن الحقـائق المعروفة ان الخيول العربية التي اشتهرت في الهند بكونهـا خيل قتال وركوب وسباق، تتراوح بـين ١-١٤ او ٢-١٤ وقلما تزيد على ٣-١٤ قبضة بشكل ثابت، وذلك هو القياس للخيول العربية الاصيلة من نجد وشمر وعنزة.

في المناطق المحيطة ببغداد والبصرة والحلة والمسيب، عندما ادخل دم الخيل العربية في الخيل العراقية، تحسنت في ظرف سنوات قليلة نتاجات الحيوانات في ارتفاعها، وجلب عدد كبير منها الى بومبي وباعها تجار الخيل، على انها خيل عربية اصيلة، الى افواج فرقة حيدر آباد وفيالق اخرى.

وحكى لي والدي ان فوجه القديم، حملة الرماح الثالثة التابعة لفرقة حيدر آباد، كان مقره في سنة ١٨٧٥ في اورانكاباد، فذهب من هناك الى بومبي لشراء خيل، ورأى فيها بعض الخيل العربية التي كان ارتفاعها ١٥ قبضة تقريباً، وعندما سأل التجار كيف تم انجاب هذه الخيل اجابوه ان بعض الضباط طلبوا اليهم استيراد قليل من الخيل العربية بهذا الارتفاع، وعاهدوهم ان يدفعوا لهم ثمناً جيداً لها، فجلبوها من بين النهرين، قرب الموصل بعد سفاد خيل عراقية كبيرة الحجم افراساً من عنزة وشمر.

وبعد ان لاحظ العرب ان الخيول التي ارتفاعها من ١٥ الى ٢-١٥ قبضة عليها طلب عظيم في بومبي واثمانها جيدة، بدأوا يستولدون خيلاً بهذه المواصفات، ونجحوا في

انتاج خيل اكبر حجماً. وراح بعض العـرب ايضـاً يقلـدون مربي الخيل الاستراليين بوسم الخيول على اكتافها، مـع ان بعض مربي الخيل مـن عنـزة وشـمر يسـتنكرون هـذه الممارسات ويبذلون جهودهم من اجل المحافظة على انساب خيلهم، غير ان اكثر من نصف القبيلة اخذوا يربـون خـيلاً كبيرة الحجم، وصاروا في محاولتهم كسبَ مال اكثر يدمرون انساب خيلهم.

ذكر لي والدي ان البولو (الكرة والصولجان) بدأت تصـبح لعبة شعبية في الهند نحو عام ١٨٨٠، ونتيجة لذلك صـار الطلب لخيول صغيرة للضباط وللاعبين الآخرين، ولكن في ذلك الوقت لم يُجلب الى بومبي الا عدد ضئيل مـن الخيـول العربية الصغيرة. واستورد طوال الموسم كله حوالي ثلاثـة او اربعة الآف حصان، ولم يكن بينها من الخيل الصغيرة إلا اربعة او خمسة. وعندما اخذت هذه الخيل تنال الاستحسـان في الهند، توجه تجار الخيل العربية في بومبي الـى امـاكن مختلفة لتربية الخيل في الجزيرة العربية وطفقـوا يقنعـون مربي الخيل بانتاج هذا الصنف من الخيل. لذلك فان الفحول والاناث الصغيرة الحجم في مابين النهرين (قرب الموصـل)

عزلت لاجل استيلاد خيل اصغر حجماً، وبعد سنوات اخـذت بومبي تستورد مئات الخيل بارتفاع ٢-١٣ و٣-١٣ قبضة. كانوا باديء ذي بدء يميلون الى انتاج نوع من الخيل كبيـر الحجم وقوي، ولكن الطلب لخيل البولو المفـاجيء شـجع انتاج دواب اصغر. ونظراً للانتقال من طرف الى طرف آخر، فقد عانت الخيول العربية كثيراً، لذلك فان نوعيـة الخيـول الاصيلة التي كانت ترى سابقاً في بومبي لاتجـدها اليـوم فيها. واخبرني ابي ايضاً ان الغلطة نفسها كانت السبب فـي تدمير جميع السلالة المحلية في الهند ونعنـي بـذلك مـثلاً خيول مناطق خاتياوار كونكـاتيري، مـاروار، مالاكـاون، بوندي، والدكن. فقد اخـذوا يضـربّون الخيـول العربيـة والاسترالية بهذه الاصناف ظناً منهم انهـم بعملهـم هـذا يحسنون السلالة الهندية، ولكن النتيجة التي حصـلت هـي التدمير الكامل للسلالات العريقة، ولم يتحسن نسـلها قـط. اخبرني ابي انه عندما كان في الثانية عشرة من عمره كان لديه حصان دكني اصيل كستنائي اعتاد ركوبه عند الصـيد، وان بنيته وشكله وهيكله تشبه تماماً الخيـل العربيـة مـن الطراز الاول في ايامنا هذه. وقال ايضاً ان خيول خاتيـاوار

في تلك الايام كانت وسيمة، سريعة الجري. ولو كانت تلـــك السلالة النقية موجودة اليوم لفاقت الخيـــول العربيـــة فـــي البولو، وفي السلالات الكونكاتيرية والدكنية خيول ممتـــازة ايضاً.

في الدكن، استغنى علي بن عبد الله عن جميـــع فحـــول السلالة الاصيلة لخيول لملاكاون وكونكـــاتيري، واســـتبدلها بخيول عربية وكانت النتيجة ضياع الســـلالة القديمـــة فـــي الدكن، ولم يكن النسل الجديد بافضل حالاً قط.

وكنا في بغداد ذات مساءٍ نناقش مسألة الخيول بعد تناولنا العشاء، وذكر ابي في معرض الحـــديث انـــه قبـــل اثنـــين واربعين سنة، عندما كان في الثانية عشرة من عمره، اخذه جدي الى "جاثرة"[٢٧] في مالاكاون حيث يعرض نحو خمسة الآف حصان للبيع. ويحضر عدد كبير من الناس من حيـــدر آباد لشراء الخيل، وقد بيعت بعض الخيل في معرض الخيل ذلك بـــ ٢٠٠٠ ربية الى ٢٥٠٠ ربية.

مالاكاون قرية بين حيدر آباد واوراكاباد حيث تقام جـــاثرة ومعرض للخيل ايضاً. قال ابي ان اغلب الخيل في المعـــرض كانت من سلالة دكنية صرف – وسيمة، حسنة الشكل، جيدة

الهيكل، ولم نعد نجد ذلك النمط وتلك السلالة اليوم. كانت فرقة حيدر آباد وكل افواج خيالة صاحب السمو النظام تمتلك في ذلك الحين خيولاً دكنية ومالاكاونية، غير ان تلك السلالة ضاعت تدريجاً، وكان سبب ذلك الاختلاط الدائم الناقص في الارومات.

كانت الخيول العربية الاصيلة في السابق تعرف باسماء آبائها، فيقال مثلاً عن مهر انه صقلاوي جدران وان اسم ابيه كذا وكذا، غير ان الاسلوب قد تبدل اليوم واتخذت بعض القبائل طريقة جديدة، فتركوا اسم الاب وصاروا يميزون المهر باسم امه، واذا استمرت جميع القبائل العربية في تبني هذا النظام فان ضرراً سيصيب انساب خيلهم.

اهمية الرحلة:

تتجلى اهمية الرحلة في كونها تثبت في يوميات شاهد عيان ذكر فيها مارآه في بداية هذا القرن منذ دخوله البصرة، وقبلها ايضاً، حتى وصوله بغداد، ووصف بعض احوال العراق الادارية والاجتماعية وطرق المواصلات ووسائلها النهرية والبرية، وما فعله فيضان عام ١٩٠٧ فيها. ويولي اهتماماً خاصاً بالخيول العربية وصفاتها وانسابها وتربيتها وتسويقها داخل العراق وخارجه. ويرد فيها ذكر شيخ المحمرة خزعل، امير عربستان من ١٨٩٧-١٩٢٥ . وعبد الرحمن النقيب رئيس اول وزارة عراقية عام ١٩٢٠. وكان حاكم حيدر آباد في الدكن يعتبر من تابعي نقيب بغداد، ويقال ان للشيخ عبد القادر الكيلاني ابنا اسمه عبد الرزاق هاجر الى الهند وماتزال هذه العائلة القادرية هناك. وكانت تُرسلُ اموالُ طائلة وملابس موشاة بالذهب هدايا الى نقيب بغداد من حيدر آباد. وحيدر آباد من مراكز التراث العربي الاسلامي الذي حفظ ونشر فيها.

رحلة كودالا (١٩٤١)

ثورة مايس في العراق
والقوة الجوية البريطانية في الحبانية

على بعد ثمانمئة ميل شرق القاهرة ووراء التلال الصخرية لفلسطين والبادية العريقة الجرداء للجزيرة العربية يجري نهر متسع ماراً بمدينة متواضعة، في الاسبوع الاول من نيسان ١٩٤١ كانت الجماهير تموج وهي تمر في شارع الاعمدة الملوثة حيث تطل المساجد بمآذنها المنيرة على بغداد. وقد استولى على السلطة في العراق رشيد عالي الذي يطل بيته اللطيف بحديقته العامرة بالورود والزهور العطرة على صفحة دجلة اللامعة. لقي الانقلاب الذي قام به ترحيباً حاراً من لدن السفارة الالمانية؛ والقي بعض الضوء على دوافعه بواسطة الظروف الكاشفة للقادة العراقيين الاربعة الذين شاركوا في النظام الجديد والذين عرفوا شعبيا باسم "الرباعي الذهبي". وفي الوقت الذي نقل الوصي الشرعي واصدقاؤه جواً بصورة رومانسية الى مكان أمين بواسطة القوة الجوية البريطانية، كانت هذه الجماعة تشكل تهديداً

للهدوء الفكري البريطاني في منطقة حيوية للستراتيجية البريطانية.

وقد لوحظ منذ زمن طويل ان الوصول الى النفط الايراني والعراقي كان ضرورة أولية للحرب. وتعتمد الاساطيل البحرية والطائرات والعربات المدرعة وجميع وسائط النقل العسكرية على هذا الوقود. وما دامت خمسة اسداس النفط العالمي تقع في الطرف الاقصى للاطلسي والنصف الباقي تقريباً بعيد عن متناول البريطانيين في منطقة محايدة في روسيا وفي رومانيا، فان مصادر التموين في ايران والعراق أصبحت أمراً يثير قلقاً متزايداً. وان أي تهديد للهدوء في العراق سوف يجلب الخطر لانتاج حقول نفط الشمال ويعرقل جريان النفط في الانابيب التي تنقله الى ناقلات النفط الراسية على ساحل البحر عند حيفا في فلسطين، وقد يؤدي ذلك الى إيقاف هدير محركات الطائرات وجعجعة الدبابات والشاحنات في الصحراء الغربية. وبالاضافة الى ذلك فان حكومة معادية للانكليز في العراق قد يجعل الامر عسيراً للغاية على القوى البريطانية لحماية حقل النفط الايراني الذي يبعد ٣٥٠ ميلاً شرقاً، لو ان ذلك اصابه التهديد ولا يمكن القيام بمغامرة في

منطقة يتوقف على أمنها الكثير من الامور. وان الطريق الى الهند جواً يمر بالعراق والخليج. وان المواصلات البحرية قد ربطت ذات يوم الامبراطورية. وكانت في تلك الحقبة قوة بريطانية قوية تحمي قناة السويس بتدابير وقائية محكمة ومن اجل أمنها تحركت السياسة البريطانية في الشرق الاوسط مدة جيلين وجلبت القوى البريطانية الى مصر. وعند بلوغ المرحلة التالية من التطور وعندما اصبح النقل الحيوي محمولاً جواً، فمن الواضح ان التدابير الوقائية المشابهة قد ادخلت في العراق ايضاً.

وبعد انفصال العراق عن تركيا عام ١٩١٨ فانه اتخذ شكل الانتداب البريطاني، وتبع الاعتراف باستقلال العراق، احتفاظ القوة الجوية الملكية البريطانية بالقواعد في ارض العراق. وظل (أمن البلاد) مدة من الزمان معتمداً على القوة الجوية الملكية البريطانية وعلى قواها البرية المحلية اللتين كانتا تعرفان بـ "ليفي العراق" و "قوة الدفاع الجوي". وكانت القوة الجوية الملكية قد تعلمت ان تنظر الى سماء العراق الملتهبة ورماله المحرقة بدرجات مختلفة من التأثر، وبالرغم من ان هذه التجربة في السيطرة على مناطق واسعة من الجو قد

انتهت بخلق جيش عراقي، فان بريطانيا ظلت تحتفظ بنقاط حيوية.

وعلى بعد ستين ميلاً من بغداد عبر البادية حيث يميل مجرى الفرات العظيم نحو بحيرة ملائمة لهبوط الزوارق الطائرة الخاصة بالامبراطورية على الطريق الى الهند، تقع سقوف حديدية لا تحصى وبرج خزان ماء عالٍ، وبعض اوكار الطائرات ومطار يعلن عن وجود القوة الجوية الملكية. وداخل بقعة محيطها ثمانية اميال من السياج الحديدي الذي يثير الخوف والاعجاب تنتصب مباني القاعدة بين طرق مشجرة تحمل اسماء انكليزية مألوفة. ثمة مساحة واسعة من العشب وساحة للكولف واخرى للبولو. ومع ان البادية العراقية الشهباء تمتد اميالاً وراء السياج حيث تحفحف الضباع (أيِ يسمع صوتها)، ليلاً وتتراقص الحرارة نهاراً فان منظراً بهيجاً من نبات المنثور واللبلاب والورود تذكر المرء ببراءة حدائق كوخ على مبعدة ألفي ميل من هذا المكان.

لقد بنيت القاعدة في الحبانية لاجل السكن المريح في مناخ مرهق للغاية اكثر مما بنيت للدفاع، ولم تكن توحي

بالفكرة البغيظة ان احداً قد يقترب منها لمهاجمتها. كانت تشرف على هذا الموقع عن كثب هضبة صحراوية تسيطر على المطار والسقوف الرمادية غير المعينة في الحبانية.

اصبحت هذه النقطة السكنية المقر الرئيس للقوة الجوية الملكية (رقم ٤) ومدرسة التدريب الجوي حيث توجد هيئة صغيرة من المدربين بضمنهم بعض اليونانيين يتصرفون باقل من ثمانين طائرة. ولم تكن جميع هذه الطائرات قادرة على العمل في ظروف الحرب، لان ثلث عددها كان غير صالح، وكانت جميعها موسومة للتدريب وليس للقتال، على انه لم يكن هناك اكثر من خمسة وثلاثين طياراً، إغلبهم كانوا مدربين لم يقوموا بطيران بسيط وهبوط احياناً. بينما لم يقم بعض الطيارين باية عملية طيران في هذه السنوات. وفي الوقت الذي قام طيار واحد او طياران بعمليات طيران عديدة، وكانوا قد ارسلوا للحبانية للراحة.

ان أملهم في الراحة بدأ بالتلاشي في الاسبوع الاول من نيسان عندما قام رشيد عالي بانقلابه. وقد كانت لحظة عصيبة على القوات البريطانية في الشرق الاوسط وخصوصاً بعد ان ضاعت اليونان وسرينايكا في ذلك الشهر؛ ولما كانوا

يخوضون معركتين خاسرتين آنذاك في اوربا وافريقيا لم يكن الوقت مناسباً للدخول في حملة ثالثة في آسيا. بيد انه اذا كان العراق في خطر فلابد من القيام بشيء. وقد نقل بعض المشاة على عجل جواً من الهند. ونقل الى الخليج فجأة لواء كان على اهبة الاستعداد في احد المواني الهندية للذهاب الى سنغافورة. وتلقى رشيد عالي نبأ وصولهم الى البصرة بشيء لا يذكر من الحماسة.

ولما قام بوضع العراقيل امام السماح ببقائهم فيها، بدأ الوضع في بغداد يبدو خطيراً للغاية. وكانت المسألة الدبلوماسية تتطلب عناية فائقة من جانب السفارة البريطانية عن التعقيدات الاضافية بخصوص عدد كبير من النساء والاطفال القريبين جداً من الشوارع الهادرة في مدينة شرقية ثائرة. وتقرر في الحال ازالة ذكرى مدينة كاونبور هذه التي جاءت في غير أوانها. وفي عصر يوم حار غادر بغداد رتل طويل من السيارات والحافلات وعربات القوة الجوية الملكية البريطانية متوجهاً نحو البادية مخلفاً المدينة الهادرة وراءه، غير أنهم عندما وصلوا الفلوجة، استوقفهم جنود عراقيون مسلحون برشاشات حتى استطاع ملازم طيار

لبق ان يقنع الشرطي في نقطة الحراسـة لـدى الجسـر ان يسمح لهم بالمرور. وسرعان مـا صـاروا داخـل السـياج الحديدي في الحبانية حيث يوجد (١٠٠٠) شخص من افـراد القوة الجوية و(١٢٠٠) من الليفي العراقيين و (٣٥٠) رجلاً من الفوج الملكي الخاص الذين وصلوا من الهند. وكان الجو حاراً الى درجة لا تطاق. ولم يكن مـن المؤكـد ان الجـيش العراقي كان يتبعهم في ذلك الطريق.

ان هؤلاء الضيوف غير المدعوين الذين يتـراوح عـددهم بين (٥٠٠٠) و (٨٠٠٠) رجل كان لديهم تجهيزات وافـرة من المدافع والمدافع الرشاشة والدبابات الخفيفة والسـيارات المدرعة وقد قال لهـم ضـباطهم انهـم ذاهبـون لاجـراء التمرينات. ولكن اذا حدث شيء اكثر خطراً فمـن المحتمـل انهم سوف يتوجهون الى الحبانية. وان المنطقة المهددة لـم تكن تمتلك من الوسائل للرد على قنابـل المدفعيـة سـوى مدفعين عتيقين، هما ذكرى عطرة من الحرب الماضية، وقـد اخرجا ووضعنا للزينة في ساحة الثيل (المرج) خارج مركـز التدريب الجوي. وأخذ هذان المحاربان القديمان من مكانهما ونظفا واصلحا. ولكن لم تكن هناك مدافع مضادة للطـائرات.

واذا هاجم العدو هذا المكان فيبدو انه لاتوجد وسيلة لايقافه الا مدرسة التدريب الجوي.

لقد اتضحت هذه الفكرة لدى هؤلاء المدربين المتحمسين في مرحلة مبكرة بالرغم من ان القوة الجوية العراقية تستطيع ان تحشد حوالي ٥٠ طائرة من انتاج جديد وبضمنها قاذفات قنابل امريكية وبعض المقاتلات الايطالية السريعة، التي تفوق أي شيء في الحبانية. وقد ادمجت ساحة البولو وساحة الكولف لتكوين منطقة امينة منعزلة. وجهزت جميع الطائرات بحوامل قنابل غير اعتيادية. واظهرت الفحوص ان طائرة (اوداكس) القادرة رسمياً على حمل ثماني قنابل ذات وزن (٨) باونات يمكن ان تطير بأمان بحمولة قنبلتين وزنهما (٢٥٠) باوناً. واعيد الشباب لبعض طائرات (كلاديتر) من الصحراء الغربية بصورة مستعجلة. وألقي درسُ مكثف فوري على الطلبة في الرمي المدفعي من المؤخرة وتهديف القنابل. ان هذه الاعمال صارت تعد بقوة مؤثرة لا ربع وستين طائرة، بيد انه لما كانت ينقصها الطيارون فقد اعيد التوازن بالمتدربين واي شخص يتقدم الى ذلك.

وفي اليوم التالي لوصول اللاجئين من بغداد قامت تجربة انذار بالهجوم المباغت دفعت الجميع الى الملاجىء قبل الفجر. ولقد احيط سكان المعسكر من المدنيين الكثيري العدد علماً بصورة هادئة بالموقف. وقد استجابوا مع اعتبار حازم للتعليمات السابقة في التدابير الوقائية اثناء الغارات الجوية. وقد أمضيت بقية اليوم في التعويض عن الوقت الضائع بالتدريب. ولما وصل تقرير عن مرابطة القطعات العراقية في المنطقة المجاورة واعيد البريد الذاهب الى بغداد في الطريق البريِ، فقد بدت كل الاحتمالات انهم سوف ينتهزون الفرصة قريباً في القيام بمظاهرة عسكرية يبدون فيها براعتهم.

واستطاعوا مع الضياء الاول للصباح التالي (الاول من مايس) ان يروا قطعات على الهضبة المشرفة على الحبانية. وكان رجال يحفرون الخنادق وينصبون المدافع الرشاشة قد اخذوا حريتهم وكانهم في بيتهم. وكان النقل بالسيارات في حركة دائبة وسيطرت السيارات المدرعة على المطار بمدى (٥٠٠) ياردة. ووضعت رشاشات مضادة للطائرات في مواضع مناسبة لاطلاق النار على الطائرات التي تحاول الهبوط. وقد اعلن آمرهم بشكل يدل على الكياسة ان الطيران

يجب ان يتوقف وان اية طائرة تتجاهل هذه التعليمات سوف تصيبها النيران لان المعسكر مطوق. وقد اثار هذا الاجراء رداً حازماً هو ان التدريب لابد ان يستمر وان عمليات انتقامية سريعة سوف تتلو أي عملية حربية ضد الطيران البريطاني. وتسارعت الاستعدادات.

وجهزت بعض الطائرات بالقنابل. وقاموا بطيران تجريبي فوق المواضع العراقية ولم تطلق النار على الطائرات. ولعل الامور كانت تجري بصورة حسنة منذ ان صارت هيئة القوة الجوية الملكية البريطانية بكاملها تتطلب ان تبدأ العمل وكان موظفو طائرات الخدمة منهمكين في حفر الخنادق وتحصين الرشاشات في مكان آخر في حالة اذا ما تبع ذلك عمليات فعالة. وعقد في تلك الامسية اجتماع في المقر العام وقرروا انهم اذا ما ظلوا في اماكنهم عند الفجر فانهم سوف يهاجمونهم بكل الطائرات التي يمكن ان تقلع من الارض. ان المعسكر لا يمكن ان يترك مكشوفاً للمدافع العراقية وان هذا الخطر يجب ان يبدد باي ثمن.

وقد ظن فيما بعد ان رشيد عالي عجل بهجومه قبل اوانه وقبل وصول المساعدة الالمانية. كان في الحقيقة يُنتظر

وصول بعض الطائرات الالمانية، لو أن المارشـال (بيتـان) ووزراءه سهلوا وصولها باستعمال المطارات الفرنسية فـي سوريا. وكانت السفارة الالمانية في بغداد سخية في ازجـاء نصائحها. وقد قيل ان ابن الفيلد مارشال (بلومبرك) شـارك في العمليات، غير ان شن هجوم في مثل هذا الموسـم مـن فيضان انهار العراق لم يكن يسيراً لانه يعرقل حركـة امـداد القوات من الجنوب الا عن طريق الجو او عبـر مثـل هـذه الجسور التي قد تأتي بأمور غيـر متوقعـة. كـان موسـم الفيضان في شهر مايس واليوم هو الاول منه. ولم يكن مـن اليسير رؤية كيفية نجدة الحبانية. واذا سقطت الحبانية فـان الموقف كله في العراق سيكون معقداً للغاية؛ وعندما غربـت الشمس في ذلك اليوم وقف حـوالي (٢٥٠٠) رجـل، (٦٤) طائرة و(١٨) سيارة مدرعة ومدفعان قديمان وبضعة مـدافع هاون ورشاشات وسقوف من الصفيح المموج واسيجة مـن الحديد حائلين بين الامبراطورية البريطانية والاندحار.

مر الليل بهدوء وبعد الثالثة صباحاً كانت حظائر الطـائرات تمور بالرجال عندما خرجت الطائرات لتقلع في الغبش وخرج الجميع لرؤيتها. كان ارمادا (أي اسطول) الحبانية المتنوع قد

حمل جواً، وسرعان ما امتلأت السماء الداكنة بالطائرات من كل شكل وحجم "ولم يكن أي منها حديث الصنع" تطير في جميع المستويات وفي كل الاتجاهات وتنتظر بدء القاء القنابل في الخامسة صباحاً بالضبط. لقد كان من المرعب لشاغليها ان يكونوا تشكيلة من الطائرات تقوم باقتراب غير مرئي وتمرق خاطفة جاعلة الطيارين يكادون يموتون من هبوط القلب. وحلقت طائرات (اوداكس)، مموهة وغير مموهة، في كل زاوية وكذلك طائرات (ولنكتن) و " بعض القاذفات الثقيلة اثناء الليل للالتحاق بها". والقيت القنابل الاولى على سلسلة الخنادق عند الساعة الخامسة، ولم يمض وقت طويل حتى شرعت المدافع العراقية ترد على الاذى بنيران شديدة مضادة للطائرات وقصفت المعسكر بوابل من قنابلها. كانت الطائرات تحلق على علو (١٠٠٠) قدم وسرعان ما بدأت تظهر ثقوب في الاجنحة واخترق الرصاص مقصورة الطيارين. واسقطت طائرة من نوع (اوكسفورد) وهي تحترق، وقد خسرت قائدها واثنين من المتدربين، غير ان جميع الطائرات الباقية هبطت بالرغم من الجروح والضرر، وقد عادت احدى طائرات (اوداكس) وفيها (٥٢) ثقباً. وكانت طائرات

(ولنكتون) التي تشتغل نهاراً لاول مرة في تاريخها قد قامت بعمل رائع برغم ما لقيت من عناء شديد. وعندما اجبرت احداها على الهبوط تحت فعل النار في المطار اخذ طاقمها بالجري باقصى سرعة الى الخنادق وقد قام (تركتر) بدأب وبكل ما في وسعه بانقاذ الطائرة ولكن عملية الانقاذ لم تكن هينة نتيجة للقصف الثقيل. ومع ان (التراكتر) كانت تحميه مدرعتان على الجانبين واستطاع سائقه ان يربط قاذفة القنابل المدمرة هذه بحبل، فأن اصابة مباشرة اشعلت الطائرة واصابت (التراكتر) ببعض الاضرار، وقد نجا الطيار دون اصابة ونقل في احدى السيارات المدرعة وسرعان ما انفجرت الطائرة، واستمرت العمليات تحت نار كثيفة طيلة النهار، ان الطائرات العاملة من المطار الرئيس الذي يقع على بعد نصف ميل من المدفعية العراقية لم يكن لديها الوقت الكافي للتريث، كما قال مراقب مطلع. وكانت تشغل وراء الحظائر بفتح صماماتها الخانقة داخل السياج الحديدي وتندفع خلال البوابة الرئيسة وتنطلق عبر المطار بصرف النظر عن اتجاه الريح، وتعوم باستدارة محلقة مفاجئة لتحاشي الهضبة، وعندما تعود كانت تقوم باستدارة حادة بين

الحظائر تساعد على تجنب نار المدفعية ويتبع ذلك هبوطها، اذا وافاها الحظ، واستدارة حادة اخرى داخل البوابة الرئيسة وانطلاق نحو الامان حول احدى الحظائر بسرعة عشرين ميلاً في الساعة، لان ظروف الطيران في الحبانية كانت فريدة في نوعها.

وعند الظهيرة قامت الطائرات العراقية بعملية هجوم غير مؤثرة على المعسكر وتبع ذلك قصف مدفعي متقطع، غير انه رغم كون القاذفات اسرع من ان يمكن اصابتها، وتدهور الاوضاع في المقر نتيجة رشقة مفاجئة من الرصاص خلال السقف (مما جعلت الموجودين في الداخل يستلقون على الارض تحت الاثاث وتركت زوجين من اللقالق على سطح المقر غير آبهين بما يجري تماماً) فانه يبدو ان الحبانية لن تستسلم بواسطة العمليات الجوية، انما كان الخطر الحقيقي يأتي من القصف المدفعي لان الموقع يتكون من مدينة غبراء ذات سقوف معدنية متموجة تقف عاجزة عن الدفاع، مكشوفة تحت انظار المدفعية العراقية على الهضبة. ولم يحدث ان كان هدفاً ضعيفاً امام قصف مدفعي بهذا الشكل فقد كانت تمتد تحت سماء كئيبة على مدى (١٠٠٠) ياردة ولا

يوجد فيها أي مدفع يرد على ذلك. لقد كان برج خزان الماء ومحطة توليد القوة الكهربائية نقطتين بارزتين بصورة خاصة ولو انهما أصيبتا لانتهت الحبانية تماماً.

وقد اثبتت المدفعية العراقية انها جعلت المعسكر يمر بيوم مزعج للغاية. وكان احد الضباط قد اتصل هاتفيا بطلب سيارة اسعاف غير انه لاقى بعض الشكوك من جانب السلطات حيث سئل ان كان حقاً قد قصف، فاخرج سماعة الهاتف بحذر خارج الباب. وتبددت كل الشكوك بسماع الاصوات. وهتف الرجل عبر الهاتف قائلاً: " يا الهي!" وارسلت سيارة اسعاف في الحال. ومع ان كنائس المعسكر اصيبت بالضرر نتيجة للقصف العشوائي فان خزان الماء لم يصب ابداً. كان من الممكن ان يكون القصف حاسماً بكل سهولة غير انه كان يعوزه التوجيه. فلم تكن يد المانية ترشدهم. وكان يظن ان قنبلة موفورة الحظ من احدى طائرات الحبانية استطاعت ان تقصف القيادة العراقية أو انها دفعتها للبحث عن الهدوء في مكان أكثر راحة.

وراح النهار يجر أذيال الانهاك حتى نهايته وكانت الحبانية ما تزال في قبضة مدرسة التدريب الجوي؛ غير ان اثنين

وأربعين من طائراتها كانت صالحة للخدمة، وكان العدو ما يزال متمركزاً على كتف الصحراء التي تشرف على الحبانية، وكان القدر يختبر العقول البعيدة التي تشرف على تحركات القطعات، والتي يترتب عليها أن تفكر جيداً في الحال خارج نطاق المشاكل الاضافية في العراق، لأن القوات البريطانية قد أخرجت من اليونان وليبيا خلال الأيام القليلة الماضية، ولكن من الممكن ارسال بعض التعزيزات. وقد أرسلت بسرعة بالغة بعض المدرعات التابعة للقوة الجوية الملكية مباشرة من الصحراء الغربية الى شرق الأردن عبر مصر وسيناء وفلسطين قاطعة (١٠٠٠) ميل في (٤٨) ساعة، وقد إرتاحت ساعة واحدة ثم دخلت في صراع مرير، ولكنه ناجح، ضد مصاعب في نقطة حيوية على خط أنابيب النفط. وكان هناك لواء من الجند في البصرة وقوة في طريقها من فلسطين، غير أن البصرة كانت على بعد (٣٠٠) ميل جواً والطريق البري عبر الصحراء من فلسطين طوله (٥٠٠) ميل. والنجدة من أي من النقطتين تستغرق وقتاً. وان الحسابات الدقيقة، والدقيقة جداً، تبدو غير سارة كأن نجدة الحبانية

كانت أملاً يائساً تتوقف فرص نجاحه غير الأكيدة على طـول صمودها.

وكانت الأيام التي مرت بعد ذلك كابوساً غامضاً فقد كـان العمل يبدأ قبل الفجر بنصف ساعة ويسـتمر حتـى حلـول الظلام. وكان الطيران مستمراً. وقد أخلي النسـاء والأطفـال جواً الى البصرة تحت غطاء من القذف المـنقض بواسـطة طائرات (اوداكس) الطليقة الحركة. وكانت تطير لـيلاً وهـي تسلية غير مقبولة حيث لا يمكن استعمال طريـق مضـيء. والاقلاع في الظلام كان يتبعه هبوط على ضوء مصباح هبوط الطائرة نفسها الذي يفتح على عجل عندما يسجل المقيـاس ارتفاع (٥٠) قدماً ويطفأ على عجل أيضاً لدى لحظة الحـط. وصار عددها يتضاءل بازديـاد عـدد الطيـارين الجرحـى. وأصبحت الظروف أسوأ فلم يمكن استخدام المتدربين. وكان تلف الطائرات هائلاً مرعباً فقد بقيت (٤) طائرات مـن (٢٧) طائرة (اوكسفورد) صالحة للخدمة بعد ثلاثة أيام من القتال، نتيجة اصابة الأجزاء الحيوية بالضرر. غير انه وصلهم قليل من طائرات (بلينهايم) ودهش الطيارون عنـدما وجـدوا ان الهبوط في الحبانية الآن تكتنفه عمليـات سـريعة ومعقـدة

كلعبة "الغميضة" بين مباني القاعدة. وعلى مسافة أبعد من ذلك هاجمت القوة الصغيرة مطارات عراقية مدمرة عدداً من الطائرات الجاثمة على الأرض. وقد ضربت بصورة مستمرة الامدادات المنقولة الى القطعات على الهضبة وهي في طريقها من بغداد. وفي ٥ مايس بدأ المحاصرون أنفسهم يذوقون طعم الحصار، لأن الطعام والماء والذخيرة لا يمكن أن تصلهم إلا عن الطريق الصحراوي الذي تسيطر عليه الطائرات المحوّمة من الحبانية. وفي صباح اليوم الخامس للحصار استيقظت الحبانية لتجد الهضبة خالية.

لقد قلبت الظروف قلباً كاملاً وهي تظاهرة عسكرية فعالة لا يمكن أن تقوم به مؤسسة تعليمية عندما تستثار حقاً. فتحولت الحبانية الى حالة الهجوم؛ لأن المهاجمين كانوا مايزالون في الطريق الى بغداد حيث كانت السفارة تعاني من وجود غير مريح مع عدة حربية (موضوعة في مكتب الآرشيف) متكونة من بعض البنادق وقليل من القنابل المسيلة للدموع لحماية (٣٥٠) من الرعايا البريطانيين. وكان وصول النجدة يحتاج الى شيء من الوقت، وقد جعل القناصة على سطوح البيوت المجاورة الأمور بغيظة. فعندما

كانت تأتي طائرات بريطانية بصورة منتظمة لألقاء منشورات استرضائية كان الجمهور الغاضب يطلق النار على أي شيء في سماء بغداد. وفي يوم ٦ مايس قامت غارة من الحبانيـــة باتجاه المدينة. وكان (العدو) مرابطاً بصورة محكمـــة قـــرب قرية تعرف باسم سن الذئبان (ولكن أفراد القطعات يفضلون اسم سن الذبان). هذا وقد وضعت مدرسة التـــدريب الجـــوي قواتها بشـــكل عمليـــة مركبـــة مـــن المشـــاة والمـــدرعات والطائرات. وكانت القوة البرية متكونة، اضافة الـــى ثـــلاث سرايا من القوة الملكية الخاصة، مـــن (الليفـــي العـــراقيين) الخادمين مع القوة الجوية الملكية منذ الأيام العاصـــفة بعـــد الحرب الماضية الأولى.

كانت المعركة عنيفة في (سن الذبان). وقد استعاد المدفعان القديمان شبابهما المفقود. وتزعزعت معنويات (العدو) كثيراً بوصول قنابل ٥ر٤ عقدة التي تركتهم مضطربين لان مـــدافع ثقيلة قد نقلت جواً وبطريقة خارقة مـــن البصـــرة، وعنـــدما حاولوا نقل التعزيزات في حافلات بغداد، اصابتها الطـــائرات في الطريق. وقد ارسلت الحبانية كل شيء يستطيع الطيران. وواصلت لمدة ساعتين متواصلتين حيث قصف رتلاً طـــويلاً

من الناقلات المتراصة. وقد نقل احد الطيارين تقريــراً عــن امتداد من اللهب المتواصل لمسافة (٢٥٠) ياردة في الطريق يصاحبه انفجار الاجزاء الامامية من عربات المدافع.

كانت المشكلة التالية تطهير الطريق الــى بغــداد. وكــان النجاح في ذلك يتوقف على عمليات نصــب الجســور علــى الفرات العريض الذي كان سريع الجريان وفي حالة فيضــان شديد. وقد زاد عدد العربات المدرعــة والمــدافع بصــورة اساسية نتيجة. الاستيلاء عليها من العدو؛ اما في الجو فقــد اصبح الآن ممكناً للمتــدربين ان يحلــوا محــل مــدربيهم المتعبين. (ان الكفاءة في العمليات الحقيقيــة كانــت تقابــل بواسطة اهمال التدريب الطويل). غير انه اذا كانــت هنــاك عمليات نصب جسور، فلم يكن من اليسير ابداً ايجاد المــواد او الاشخاص الذين يقومون بذلك. استعملت أطواف (زوارق) التجذيف من نادي القوة الجوية الملكية في البحيرة لغــرض صنع عوامات، وقد شوهد مساح اراضٍ يعمل في ربط الحبال الى جانب موظفي قسم حسابات القيادة بينمــا كــان بعــض العمال المدنيين الذين لبسوا على عجل بدلات القوة الجويــة الملكية يعملون عمالاً غير ماهرين في درجة حرارة ١١٥.

فهرنهيت في الظل مع ضابط تجهيزات ومعاونين للمستشار المالي وثلاثة مهندسين من وزارة الطيران. ولعل طريقة نصب الجسور العسكرية لم تكن نفسها في المباريات الملكية؛ بيد ان عملهم هذا صمد في مكانه. وعندما اوضح ضابط برتبة لواء فيما بعد ان الحملة نجحت بواسطة حبلين من الاسلاك، كان التصحيح الوحيد لذلك قدمه مهندس حي الضمير لتعديل النص باستعمال احد الحبال السلكية وحبل قنب.

ومع ان الوضع كان في تحسن نتيجة للجهود المخلصة لقوات (الليفي) ووصول التعزيزات المتواصلة جواً من البصرة، فان هناك معركة اخرى ينتظر خوضها فوق الحبانية. وبعد اسبوع من انقاذ مدرسة التدريب الجوي نفسها بالجهود المذهلة كان رجال يعملون في المعبر الجوي الجديد، وكان احد الطيارين في دورية فوق مطار بغداد قد رأى طائرة (مسر شمت ١١٠) "المانية ، المترجم"" مقبلة للهبوط، وكان قليل من المناظر لا يبعث على الراحة، فليس ثمة ما يقال بخصوص مقابلة طيارة المانية سريعة بطيارة تدريب قديمة، كان من الممكن لطيارة (اللوفتفاف) الاتية الى

العراق ان تقوم بالامور بطريقتها الخاصة غير ان اطلاق النار على جميع الطائرات أصاب هذه المرة تلك الطائرة بصورة ناجحة ؛ وقد وجد عندما هبطت، انها تحمل ابن الفيلد مارشال فون بلومبرك الذي جاء ليتولى مسؤولية العمليات في العراق. ولم يستطع القيام بذلك لانه كان ميتاً. لو ان طائرة (اللوفنفاف) تدخلت قبل ايام قلائل من هذا الوقت لكان الامر حاسماً ولو القيت قنبلة واحدة على خزان الماء لانتهت الحبانية، غير ان اهتمامهم كان مركزاً على الاجراءات التمهيدية لعملية ميركر (Merkur) في المطارات المحيطة بكريت، لان الالمان ايضاً كان لديهم اكثر من شيء واحد في مايس ١٩٤١. وعندما كان لديهم الوقت للتفكير بالعراق ونقل بعض الطائرات اليه، فان فقدان (بلومبرك) قد زعزع ذلك الأمر. لقد جاءوا عن طريق سوريا حيث كان المارشال بيتان petan والاميرال دارلان Darlan مستعدين لابداء التسهيلات في تزويد الوقود الاضافي في المطارات الفرنسية. وقد وضعوا قاعدتهم الآن في الموصل. ومع ان الموقف كان رهيباً غير ان الحبانية بذلت غاية جهدها برغم المصاعب؛ فذهبت طائرتان من نوع

(هريكين) وهما كسب غير متوقع جاء من مصـر لمعالجـة الموقف في الموصل. وبالرغم من ظهـور بعـض طـائرات (هاينكل) فوق الحبانية واشرافها الكامل على البحيرة الزرقاء والتواءات النهر العظيمة وسقوف القاعدة الرماديـة، فانهـا فشلت في ايقاع اضرار كبيرة. وكانت قوات النجدة الاتية من فلسطين تقترب اخيراً؛ ومع ان طائرات (مسر شـميت) قـد هاجمتها في الخطوة الاخيرة في سباقها مـع الـزمن فـان تدخلها قد فشل في وقف تلك الامدادات ووصلت الحبانية عن طريق الصحراء في ١٨ مايس. وتقدمت القـوات الموحـدة نحو بغداد حيث كانت هناك حالـة مـن النـدم تطالـب الآن الطائرات البريطانية بالكف عـن مهاجمـة الاهـداف غيـر العسكرية. وقد سدت القوات العراقية الطريق عنـد منعطـف النهر في الفلوجة حيث ان المغامرة نفسـها التـي اغفلـت تدمير خزان الماء في الحبانية فشلت الآن في قصف جسـر من خمسة اجزاء فوق نهر الفـرات العـريض. لقـد تـم الاستيلاء على المكان بمعركة عنيفـة واسـتخدام للقطعـات المحمولة جواً في حركة التفاف.

واصبح الطريق عبر الصحراء نحو بغداد مفتوحاً. وكانت السفارة المزدحمة تستطيع سماع اقتراب القنابل واطلاقات المدافع البطيء. وقبل انتهاء الشهر كان رشيد عالي واصحابه قد هربوا وكان عددهم اربعين رجلاً.

وفي يوم ٢٩ مايس عاد (السلام) الى الحبانية حيث كانت جماعة قوات الليفي تسير عصراً في طرقات القاعدة الظليلة ذات الاسماء الانكليزية المألوفة. وسرعان ما طلبت بغداد الهدنة. وقد اخبرتْ برقيةٌ وزارة الطيران ان علم الهدنة قد رفع في الحال عند القيام بهجوم جوي واسع النطاق على الثكنات والمطار بقنابل من صنع محلي. وقد تأكد هذا التشخيص في اليوم التالي عندما نقل الوصي على طائرة مقاتلة الى عاصمته. وقالت برقية اخرى ان مطار بغداد قد استعملته القوة الجوية البريطانية. وانتهى اليوم بازجاء التهاني في البلاط بحضور عدد كبير من الدبلوماسيين لم ينقصه سوى غياب الوزير المفوض الياباني.

اليوم هو الاول من حزيران، في شهر محرم، قامت مدرسة التدريب الجوي بـ (١٦٠٠) طلعة جوية والقت (١٠٠) طن من القنابل، واطلقت (٢٥٠,٠٠٠) طلقة، وقد

ساعدتها بصورة عظيمة قوات الليفي وامدادات القطعات والطيارات ناهيك عن المدفعين العتيقين الذين عادا في مابعد الى تقاعدهما على رفعة العشب خارج المقر العام، فانقذوا العراق وجميع المواقف في الشرق الاوسط. انهم في الحقيقة قد انقذوا شيئاً آخر، فبعد ثلاثة اسابيع توجه الالمان الى قتال روسيا. لقد انقذوا الطريق عبر ايران الذي كان حيوياً لمرور نجدة قوات الحلفاء الى الاتحاد السوفيتي. لو اريد حماية ذلك الطريق فيجب ان يكون العراق في ايدٍ قوية. وبشيء من تزامن الاحداث الغريب ساعدت الحبانية في انقاذ الكرملين.

ان اهمية هذا الانجاز لم يغفله احد المراقبين لانه ذات يوم عندما كان القتال دائراً نزلت طائرة مسر شميت في رينفروشير، وعندما اعلن رودولف هبس الشروط التي يوافق الفوهرر بموجبها على ايقاف القتال، كان الطلب الوحيد خارج اوربا (عدا شيء واحد خارج المستعمرات الالمانية)، هو جلاء البريطانيين عن العراق.

العراق
في (الرحلة العربية وأسفار اخرى في الصحراء)

بقلم : جيرالددي كاوري

تبدأ رحلة جبرالددي كاوري في هذا الفصل الذي اخترنا ترجمته من كتابه" الرحلة العربية واسفار اخرى في الصحراء" بدءاً من جنوب العراق عبر شط العرب، ليلتحق بالوصي على العرش واعوانه في اثناء هروبهم الى فلسطين بعد قيام ثورة مايس ١٩٤١ م، التي طاردت بعد نجاحها كل رموز السلطة التي توزعت عليها مقاليد الحكم، وفرضت على الملك فيصل الثاني الذي كان طفلاً آنذاك الاقامة الجبرية، ومن ثم شرح تفاصيل العودة ثانية مع كل الذين هربوا مع الوصي عبد الأله الى بغداد. الفصل مكتوب برؤية رجل انكليزي له شأن بارز يتضح من خلال سير الاحداث فهو ليس مجرد رحالة يسجل مشاهداته وانطباعاته، لذلك فان الرؤية التي ينظر بها للاحداث والاشخاص رؤية انكليزية بالمفهوم الاستعماري.

(الى نهر دجلة)

كان هدوء غريب يخيم على مدينة البصرة العريقة. تهـدل سعف النخيل مثقلاً بالحزن فوق عادتـه، وكانـت البيـوت، بسطوحها المنبسطة وغرفها الطويلة وشناشيلها، وطـابوق جدرانها الشاحبة، تبدو مغبرة وبحاجة الى طـلاء. ارسـلت شمس الظهيرة شواظها على صفحة مـاء النهـر الخاليـة الصافية كالمرآة، حيث لا تـرى اثـراً للمشـاحيف وزوارق التجذيف، والزوارق البخارية الصـغيرة، والبحـارة العـرب الصاخبين على سفن (الدهو) العربية، والحمالين الفرس. ولا تسمع الا اصواتاً مكتومة لرشاشة بعيدة ولمحة مـن بـدلات خاكية بين النخيل، هي دلائل الحياة الوحيدة.

كنت موفور الحظ في وصولي اليها، بعد التغير الذي حصل في نظام الحكم، وعرفت سابقاً ان من العسير بلوغ فلسـطين من طريقها كما نويت. فضلاً عن ذلك، اخبرني نائب القنصل البريطاني في (المحمرة) على شط العـرب ان المتمـردين سيطروا سيطرة كاملة على العراق، ماعدا القاعـدة الجويـة للقوات الجوية الملكية فـي الحبانيـة والشـعيبة، والمطـار

الجوي في المعقل قرب البصرة. انتظرت مبكراً في صباح اليوم التالي، في زورق بخاري، وسط مجرى النهر العظيم، تحت الشمس، النهر الذي يتكون من التقاء دجلة بالفرات ويجري الى البحر.

كان الجو حاراً وانا جزع، انضح عرقاً ، ان الصعود في مجرى النهر غير امين، ولابد من النزول والسير حوالي خمسين ميلاً الى الشعيبة، حيث معسكر القوة الجوية على طرف الصحراء العربية، غرب البصرة. ومن الخطورة القيام بتلك المحاولة الا في ملابس عربية يمكن ان يجلبها النوتية (البلاّمة) من البساتين على الضفة الايرانية؛ ولو انني خرجت مبكراً لتمكنت من اختراق المنطقة الخطرة، قرب البصرة، ليلاً، وبينما كنت اقلب الرأي بشأن هذه الخطة هتف النوتية لوصول سفينة آتية من جنوب النهر وبانت وراء قمم النخيل، عند منعطف النهر، صوارٍ تتقدم بطيئة.

وانتظرنا بانتباه شديد، وحرارة شمس الظهيرة تحرق عيوننا ونحن نجدف باتجاه المكان الذي ستظهر فيه السفينة للعيان. اظهر لنا مقدم السفينة ومدافعها انها بارجة حربية

بريطانية ومن خلفها السفن الناقلة للجنود الـــذين أحتشـــدوا على سطحها بمحاذاة السياج.

بدا زورق القنصل البخاري يتضاءل كلما اقتربت البارجة، ويسمع هسيس الزبد تحت جوانبها، وهتفنـــا مـــرحبين بهـــا لتنقلنا، مع ان احد الاشخاص كان يشير الينا بالابتعاد جانباً.

ولابد ان ربانها لانَ لانني سمعت امـــراً يلقـــى، وتهـــادت السفينة قليلاً، واقتربنا الى جانب مؤخرتها، ثم إنحنى البحارة كثيراً لمد يد العون كي اصعد سلم الحبـــال، والقـــى نوتيـــة الزورق البخاري متعاونين، حقيبتي الى ظهر السفينة. وقبـــل ان احط قدمي على ظهرها اسرعت بنا وبهم. وكـــان حســـن الاستقبال في جناح الضباط وبرودة الجو امراً ســـاراً بعـــد الحر وقلق الانتظار في النهر. وكانت قافلة السفن البطيئة في سيرها، مكتظة بالجنود بالجنود البريطانيين الذين لم أر بمثل عددهم في الشرق الاوسط منذ اندلاع الحرب، لقد منحني ذلك شعوراً بالثقة والكبرياء. اجتزنا مدينة البصرة، لانها كانت في ايدي المتمردين، وذهبنا الى محلة المعقل التـــي صـــمدت بمينائها النهري والمطار الجوي.

كان للبصرة، ماضٍ مجيد حين نشوئها في القرن السابع، واصبحت موضع فخر للخلافة العباسية - فينيسيا الشرق؛ وكان لها مع فينيسيا علاقات تجارية براً وفي البحر المتوسط. ولكن جاء المغول في القرن الثالث عشر من الشمال لينزلوا الدمار فيها، وسرق البرتغاليون الثروة الآتية اليها من الجنوب. فضاعت تجارتها، وتحول مجراها الى طريق جديد، في البحر من الهند الى لشبونة، والى الاراضي المنخفضة. ومع ان البصرة تستعيد نشاطها، وتجدد بناءها، فان جو التدهور الطويل في القديم مايزال يخيم عليها.

وراحت سفننا تواصل طريقها في موكب مهيب في هذا المجرى الفسيح من مياه الثلوج الذائبة والامطار الغزيرة في جنوب تركيا الى شط العرب، نحو المعقل. كان للنهرين دجلة والفرات مصبان منفصلان في الماضي السحيق ودخل اسطول الاسكندر، العائد من الهند بقيادة امير البحر نيرخوس اثناء احدى العواصف، في مصب نهر دجلة خطأً وترتب عليه ان يعاود البحث عن مصب الفرات والطريق الى بابل. ووهب كل نهر من انهار العراق الحياة لامبراطوريات عديدة، وكان

كل منها حداً فاصلاً لامبراطوريات اخـــرى وعليهـــا التقـــت جيوش الشرق القديم والغرب القديم.

تمتد اعظم بساتين النخيل في العالم علـــى ضـــفاف شـــط العرب. وعندما ينضج التمر في آب وايلـــول يصـــبح حلـــو المذاق، لينا، ذهبياً – لا يشبه التمر الجاف الذي يصل اوربـــا في الشتاء التالي. يصعد اصحاب البساتين الى قمـــم فحـــول النخل في فصل الربيع ويقصون الاســـدية ذات المســـحوق القشدي اللون (الطلع) من قلب الشجرة ويلقحون بها انـــاث النخيل. ويصنعون منها شراباً يدعونه " الطلع ، يعتبر شراباً منعشاً ودواء، وله مذاق داخن، فيه بعـــض المـــرارة، لذيـــذ الطعم، برغم ذلك. يرجع استعمال التمور الى عصور سحيقة، فقد وجد على نحت بارز في خور صاباد، قرب الموصل، في القصر الملكي صورة للملك يحمل طلع النخيل، رمز الخصب، والطعام، والشجرة التي تمدهم بالحصر والحطـــب وخشـــب التسقيف والحبال والمراوح.

التمر لدى مئات الالوف مـــن العـــرب طعـــامهم الـــرئيس يتناولونه احياناً مع حليب النوق. كمـــا يصـــدر مـــا يقـــارب

٢٠٠,٠٠٠ طن من التمر بما تزيد قيمته علـــى ٨٠٠,٠٠٠ باون سترليني، سنوياً من البصرة قبل سنة ١٩٣٩.

كانت المعقل مكتظة باللاجئين من بغداد، في طريقهم الـــى الهند،

وكانت الطائرات تصل كل ساعة تحمل الجرحى من معسكر القوة الجوية في الحبانية، على الفرات، على بعد ستين مـــيلاً غرب بغداد، التي كان (المتمردون) يهاجمونها. هرب اغلـــب الخدم من الفندق فـــي المعقـــل، ولكـــن زوجـــة المستشـــار الدبلوسي، من سفارتنا، كانت ترتب الاسرّة وتنظم هيئة مـــن المتطوعين.

قتل ضابط الاستخبارات الاعلى للموقع في طائرة هبطـــت اضطراراً في البحر قريباً من الساحل العراقـــي فـــي الليـــل، وذهبت معـــه أوراق مهمـــة، وآلاف كثيـــرة مـــن الـــدنانير ومجوهرات التاج العراقي. لم يكن ثمة ضابط غيره في القوة الجوية البريطانية يمتلك مثل خبرته الطويلة في العراق، فقد درس العراق دراسة دقيقة. لذا فان المعلومـــات المخصصـــة عن بغداد، الآتية الآن من الهند، لن يكون لها مرشـــد خبيـــر

في الصحف والتقارير، كانت الافعى العسكرية فاقدة عينيهــا وسوف تزحف ببطء.

كان المبنى يهتز كل نصف ســاعة او نحــو ذلــك بســبب ضجيج محركات القاذفات او مراوحهــا التــي كانــت تنقــل الجرحى او اللاجئين من الشمال، او بسبب استعدادها للاقلاع ثانية. طيار هولندي من الهند الشرقية هبط بطائرتــه علــى المدرج حاملاً جماعة من اليهود المهاجرين الــى فلســطين، وكان لديه مقعد واحد شاغر. كان الطيار والذين معه راغبين في الذهاب الى اماكن اكثر سلامة في الجنــوب ولكــن لــم تسنح لهم الفرصة، بسبب الظروف، فاضطروا للذهاب الــى اللد معها.

عندما اقلعنا رأينا وميض اطلاق نار من الاشجار الخفيضة شمال المطار. فخشى الطيار منها فارتقع مباشرة في اعلــى الجو، ورأينا الهضاب خلفنا الممتدة بعيداً . . وما ان انطلقنا في طريقنا حتى امتدت صحراء الحجارة امامنــا مــن حافــة البساتين، بين البصرة وشــرق الاردن؛ ووراءهــا، يســاراً ويميناً، الهضبة العربية المتواصلة بلا نهاية.

كان زملائي الركاب اليهود، بشعرهم الاجعد وارديتهم المخملية، يتمتمون صلاتهم او يقرأون في كتبهم بحروفها ذات الزوايا بحماسة متعصبة للدين. حتى في الشرق، كانوا غريبين جداً. ايمكن ان يكونوا كاذبين مزيفين؟ وهل كانوا منجمين من القدماء الذين استقرأوا المستقبل بسيمائهم (السحرية)؟ وهل كانت تلك الرائحة الحلوة "المخدرة" الباعثة على الغثيان آتية من الطائرة، ام آتية من قبورهم في القرن الخامس عشر، التي سيعودون اليها عندما تخونهم رقاهم السحرية؟ في اعالي الجو الهائلة، يبدأ المسافرون الكتابة على عجل في دفاتر ملاحظاتهم، حينما تحلق افكار الناس باجنحة الخيال، وهذا شيء يعرفه الطيارون جيداً فيبتسمون ساخرين بأدب ويسألون: وهل انت متأكد ان في ما كتبت او فكرت معنى؟ الطيارون على حق، مع الاسف. وصارت (السيمياء) تؤثر في نفسي ايضاً.

واخذت افكر بفعل الاجواء العالية. وطفقت العبارات تنتابني بكسل ودونما ترابط. تسقط الامطار ولا تنبت المحصولات. المعجزات تحدث ولا تحدث. الانقياء في جسومهم اشرار في افكارهم. الكتابة الاولى والعجلة الاولى كانت تحتنا – هناك

في بلاد التمر التي تغمرها الشمس التي خلفناها وراءنا - ويخرج النفط منها الآن مكّن الانسان ان يسيطر على الجو. نمت نوماً متقطعاً. (كانت فرقعة باب مقصورة الطيار تعلو على هدير الطائرة. أراني الطيار خطاً احمر على خريطته هو طريقنا - وصاح معلناً سرعة الطيران والريح العالية المعاكسة لها: " سنهبط قبل غروب الشمس بخمس دقائق."

أبدأ من ضفاف المياه الحارة البطيئة، من الارض الى الهواء، ومن الهواء الى الاثير والمطلق؟ الاله - الانسان؟ المحرك ينشد: " القلة تقود .. القلة تقود." ضباب وابخرة خفيفة تحيط بنا. هل الانسان نصف الاله آت؟ أوشك السر ان يفتضح عندما اخذت الطائرة بالهبوط خلال ركام ثم عِهْن من غيوم بيض. كان الليل يهبط. وصارت آذاننا تؤلمنا والطائرة تدور كالصقر، هابطين الى الارض، والحرب.

سمعت في اللد اخبار الامير عبد الأله، الوصي على عرش العراق. كان مع حاشيته في القدس. كانت العائلة الهاشمية تحكم في مكة قروناً عديدة، وهي العائلة التي ينتمي اليها الوصي الابن الوحيد للملك علي، الابن الاكبر للحسين ملك الحجاز. يعتبرون انفسهم من سلالة هاشم الجد الاعلى للنبي

محمد، كما ينتمي اليه الخلفاء العباسيون في بغداد، وسلاطين مراكش اليوم. حكمت عشيرة الوصي منذ ايام قتـادة أميـر مكة، المعاصر لصلاح الدين، في اوائل القرن الثالث عشر – في مكة والحجاز ايضاً بطبيعة الحال – بـلا انقطـاع، ولـذا فانهم أقدم العائلات الحاكمة في العالم.

قادوا الثورة العربية في الحرب العالميـة الاولـى؛ ونـزل جميع ابناء أمير مكة، عدا الوريث الاكبر، الى ميدان المعركة مع رجالهم، تساندهم اسلحتنا، ووطدوا حكمهم فـي العـراق وشرق الاردن – متبنين النهضة العربية التي وجـدت مـن يعرقل الان عملها البناء الذي قامت به اجيال مـن الرجـال، نتيجة العمل الخاطىء من الذين ايدوا القائد المتمرد، رشـيد عالي، الذي ساعده الملك فيصل (الاول) ذات يـوم، ولكنـه يخون حفيده اليوم في بغداد.

وتولى الوصي مهمة عسيرة قبل شهور عديدة من وجوب مغادرته العراق، ملتجئاً فترة من الزمن في مدينـة جنـوب بغداد، مركز لواء الديوانية، الرابضة في وسط العشائر حيث رسم خططاً للقيام بضربة مضادة. ولكن رشيد عالي، قام مرة اخرى، باستغلال تأييد بعض الضباط الكبار الغـادرين الـذين

ضللوا اخلاص الجيش العراقي وقوضوه (بوســائل ســرية)، فقلب الخطط، وتولى رئاسة الوزارة مرة أخرى، بالقوة هــذه المرة.

ولم يكن ذلك قبل ان يُخبر الوصي بامر موتــه، وشــهادة وفاة هيئت مسبقاً ووقعها اربعة اطباء، فقرر مغادرة البلاد. وذهب الى دار احد افراد عائلته في مدينة بغــداد القديمــة، وساعده طبيب العائلة المالكة سندرسن باشا على الذهاب من هناك متنكراً (مثل الأمير الوسيم جارلي، في عباءة نســائية) في عربة تجرها الخيل الــى مفوضــية الولايــات المتحــدة الامريكية. وأخبرت زوجة الوزير ان عراقياً ينتظر في عربة لدى باب المفوضية، يطلب استقباله. واقنعت بكثرة الرســائل الملحة ان تصدر امراً له بالدخول. لقد كان حاكم البلاد.

واعتزم الوزير وزوجته ان ينقلاه بالسيارة الى الحبانيــة. وكان لدى الحراس عند الجسر على نهر دجلــة فــي بغــداد اوامر بتفتيش جميع الاوربيين، ولكن شــاءت المصــادفة ان تكون سيارة الوزير – بلا علم ولم يكن ظاهراً فيهــا غيــره وغير زوجته – وان يسمح لها بــالمرور. وكــان الوصــي، مخفيا ببساط على ارضية السيارة عنــد قــدميهما. تباطــأت

السيارة عند الجسر، ورأى مستر نابنشو مسدساً يرفع قليلاً تأهباً، وقد اصفرت مفاصل يد الامير وهي تمسك به. تلكأ الحارس وتبادل كلمة مع السائق، وسمح لهم بالمرور.

وبالرغم من حركة المتمردين في الطريق، فقد وصلوا الحبانية بسلام. وهكذا نجد الوصي في الوصول الى فلسطين، في طيارة، بينما كان مفتي القدس ورشيد عالي في بغداد. وطلب الى الجاليتين البريطانية والامريكية ان يلتجئوا داخل مبانيهم الدبلوماسية حيث سيكونون موقوفين لمدة شهر.

كان مع الوصي في فندق الملك داود في القدس في اوائل شهر مايس مرافقه العسكري عبيد عبد الله، من الحرس الملكي، وهو فارس متميز، من عائلة نجديّة خدمت الهاشميين مدة طويلة. وكان معهم ايضاً، نوري باشا السعيد، رجل الدولة والقائد العراقي، الذي عمل مع فيصل ولورنس؛ ومعهم ايضا ابنه الطيار صباح السعيد وداود باشا الحيدري ابن شيخ الاسلام ورئيس احدى اكبر العائلات المتميزة في الدولة العثمانية، وعلي جودت وجميل المدفعي، وسياسيون عراقيون معروفون، والامير حسين، اخو الملكة، زوجة فيصل.

كان الوصي في السابعة والعشرين. بعد موت الملك غازي في حادث سيارة في ربيع عام ١٩٣٩ اصبح وصياً على ابن غازي، الرضيع فيصل الثاني، كان شاباً نحيلاً، ذا عينين جميلتين في وجه بيضوي شاحب، يتحلى بالدماثة وطيب شمائل عائلته. يهتم بتربية الخيول العربية وسباقها، وزراعة ضيعة على نهر دجلة، ولم يكن يتوقع حكم البلاد مع ان انحداره الملكي يؤهله لذلك. يتحرق شوقاً لفهم الرجال، ولعلها موهبة تطورت لدى اسلافه الحاكمين، معرفة صغائرهم وكبائرهم بنفاذ بصيرة. وبسبب من تلك الحساسية ولشبابه، كان يستحق التأييد المخلص، وليس الخيانة، من رئيس وزرائه.

كان رجال رشيد عالي مايزالون يبحثون عنا في كل مكان. ولدى عودتنا الى العراق فيما بعد، قبل فجر اليوم الاخير من مايس، عند اقترابنا من خطوط العدو وخارج بغداد، قال علي جودت: " اذا كان هذا كميناً، فانهم سيشنقونني." وكان الامر صحيحاً بالنسبة اليه، وصحيحاً بالنسبة للاخرين والىّ ايضاً، لاننا سمعنا فيما بعد كيف كانوا يبحثون في كل مكان، مستقصين اخبارنا في طول البلاد وعرضها.

كان علي جودت، رئيساً للوزراء في العراق، مثل الجنــرال نوري، وجميــل المــدفعي. وكــان داود، ايضــاً، وزيــراً. واستقبلوني مرحبين بحرارة، وسرعان ما وجدت ان اخبــار العراق والاجراءات المناهضــة فيــه كانــت مطلــبهم الاول والعاجل. وكان نوري، ضجراً لا يهدأ، نشيط الحركة، مفعمــاً بالطاقة والافكار. اقرضنا المال من لندن لنستثير به العشائر.

وقيل: " اسلحتنا قليلة الا واحد - هو المال" وشُجعت فــي ذلك الوقت وبعده على انفاق المال - وشعرت بالنــدم حقــاً لانني لم أنفقه بسخاء. ولكن " استثارة العشائر" آنذاك كانت امراً مستحيلاً. ولابد ان ذلك يبعث على اليأس لــدى اولئــك الذين لعلهم يستحضرون صورة قديمة يسيرون فيهــا علــى خطى حملة لورنس العسكرية. جمهرة من "الجمالــة" تقطــع الصحراء في اهتياج، والوصي في وســطهم، وانــا معهــم واخراج جنيهات ذهب ترن متدلية من حنو سرجي، محاطــاً بحرس مدجج بالسلاح، هذه هي الصورة التي تخيلوها، كمــا اظن.

الحقيقة المخيبة، ان هذا الوقت من السنة لم يكن مناســباً للتعبئة في الصحراء، فهي تحتاج الى أسابيع لاثــارة ابنــاء

العشائر وهم يعارضون القيام بالثورة دونما اسلحة عصرية، لانهم خبروا السلاح من الرشاشات والطائرات. ويعرفون أن لا أمل لهم في كسب معركة ضد جند مجهزين تجهيزاً جيداً.

يمكنك ان تجند البدو وتدربهم، كما حصل في " الفيلق العربي" في شرق الاردن، ولكن ذلك يستغرق وقتاً، ونحن بحاجة الى السرعة. وحتى جمعهم، من اجل تبادل المعلومات للقيام بغارات صغيرة، في مثل هذا الوقت من السنة امر يكاد يكون مستحيلاً، لان البدو يضطرون الى التراجع حيث الأبار الدائمة في فصل الصيف وإلا نفقت حيواناتهم عطشاً وكان الصيف العربي المحرق فوقنا الآن. ومن يترك الخيمة لا بد ان يأخذ طعامه معه، وكان التموين الفائض للاسرة في الخيمة، قليلا أو معدوماً. ولما كان المرعى في الصيف قليلا او لا وجود له، فانهم يتطلبون اكياساً من الطعام لخيولهم، ولانفسهم ايضاً. وهم يحبون ان يناقشوا الافكار الجديدة بالتفصيل. أرسال الرسائل لجميع الشيوخ، الذين يكرهون السفر في ايام الحر الشديد، يستغرق بعض الايام، ووصولهم يستغرق وقتاً اطول من ذلك. فاهملت مثل هذه الخطط. واشترينا سيارات وحافلات وجندنا سواقاً بدلاً من ذلك.

وحجزت طائرة لتنقلنا حالما تستولي القطعات علـى حصـن الرطبة في وسط الصحراء، التي تؤدي الى مشـكلات غيـر متوقعة.

وكان رؤوساء الوزراء العراقيين السابقين في القدس ينظر بعضهم الى بعض بارتياب، لان احداً منهم لا يعرف فيمـا اذا سيكلف بتشكيل الوزارة، وكانت الحكومة البريطانية تأمل في امكانية تشكيل وزارة، ولكن عددهم كان قليلاً جـداً لا يسـد النصاب القانوني حسب الدستور العراقي، حتى مـع وجـود الامير حسين الذي لم يكن عضواً في مجلس الامة، والزعيم عبيد مرافق الوصي ويبدو، في حالة اختيار احـدهم رئيسـاً للوزارة، كأن الاخرين يكرهون المشاركة في الوزارة. لـذلل ظل العراق بدون وزارة رسمية. وكـان نـوري باشـا فـي الواقع، هو رئيس الوزراء ووزير الدفاع؛ وداود باشا وزير الاعلام والدعاية. وصاغ كلاهما نص المنشور الذي طلبنا من القوة الجوية ان تطبعه بستة وثلاثين الف نسـخة وتلقيهـا على المدن والقرى العراقية. وكانت من الامثلة القليلة التـي تحظى فيها منشورات تلقى من الجـو بمثـل هـذا التـأثير الملحوظ، لانها جاءت من ابناء شعبهم باسلوب عربي واضح

غير متكلف. صياغة هذه المنشورات خففت العبء عن الصدور المنقبضة للوزراء اللاجئين، لان مثل هذه الامور التي كتبوها لم يجر لها مثيل الا نادراً . استعملوا في احداها اللغة العامية، وفي اخرى اللغة العربية الفصيحة الرنانة الهادرة، وفي ثالثة لهجة البدو البليغة الموجزة، وفي رابعة لغة الكرد. تناولوا جميع الاذواق واستعملوا كل اساليب التملق والتهديد والمديح والوعود. وثارت الامزجة العربية السريعة الغضب وهم يدونونها، وتناست الحماسة السريعة الاستثارة والزوال، وهم يعيدون فحصها وتلاوتها. وكان نوري السعيد يأتي اليّ كل ساعة أو قرابة ذلك ليسألني مزيداً من اخبار البادية.

وصار الفيلق العربي من البدو في العراق الآن ببدلاتهم العسكرية، الحمر والدشاديش الخاكية، كنا ننتظر استيلاء الهجانة على حصن الرطبة، وننطلق في الحال نحو الحدود، عند سقوطها، في سياراتنا الجديدة. توقفنا في اربد في شمال شرقي الاردن لنودع حاكم البلاد، عم الوصي، الامير الملك فيما بعد – عبد الله. كان على سابق عهده الآن، بالرغم من اخبار الحرب الخطيرة، انيقاً، كيّساً، مرحاً. كان ثوبه

الحجازي النفيس يناسبه بشكل يبعث على الاعجاب. قال عنه احد الدبلوماسيين الامريكيين: " كان دوماً كأنه علـى وشـك امتطاء حصان ابيض". ولم تكن مواكـب الفرسـان التابعـة وجيوش الخيالة، بعيدة عنه ابداً. انه فارس ضاحك، منـدفع، وشاعر، وعربي العرب، ومثلهم جميعاً، اصيل، كريم المحتد، ولكنه لم يكن متكبراً. انتحى بي جانباً بعد الغداء وألحّ علـيَّ جاداً ألا اضيع الوقت في اعادة ابن اخيه الى عرشه. كنا في الحقيقة متلهفين كما كان هو متعجلاً. وطرنا مـن المفـرق، حيث المطار القريب، الى معسكر الحبانية، الذي خف الحصار عنه الآن، والتقت نقلياتنا البرية بقافلة الحمايـة العسـكرية البريطانية المتوجهة للحبانية ايضاً.

بمساعدة شرطة فلسطين، وجدنا سوّاقاً عراقيين من بـين الرجال الهاربين من الثورة في الطرف الغربي من الطريـق العابر للصحراء. كان بعضهم من شركات نقل وبعضهم الآخر من شركات النفط مجموعة متنافرة ولكنها متحمسة.

واترك للآخرين، في وقت أخر، مهمـة الوصـف الـدقيق ولمزيد التفصيل للتاريخ العسكري والسياسي لهذه الايام.

كان اندلاع الاضطراب في العراق، الذي توقع حدوثه الكثير منا، قبل بضعة شهور، من وجهة النظر الالمانية سيء التوقيت وقبل اوانه. وقد يكون لاعادة النظام في البلاد الى وضعه والوصي الى سلطته، تخفيف مؤقت لقلقنا، ونقطة تحول في شؤون الحلفاء في اسيا العربية لصالحنا.

كانت رحلتنا الجوية القصيرة نسبياً فوق الحماد القاحل الذي يعتبره البدو مرعىً غنياً.

رأينا من الجو، قرب المفرق، حلقات واضحة في سلسلة الجبال البركانية العظيمة متناثرة في الصحراء من سوريا الى اليمن. وكان جبل الدروز، الى شمال المفرق، " مشبكا" لعقد البازلت الذي يحيط ببادية الشام والصحراء العربية. وجعلت مياه الامطار المنحدرة من الجبل والمتجمعة في قنوات وصهاريج، في الماضي، هذه الارض تنعم بالرخاء وقرى صخرية مهجورة منذ ايام الرومان تطرز السهل الذي لم يعد يزرع الآن.

ووراءها، في الصحراء الممتدة، جدران واطئة لا يعرف سبب وجودها، تبدو من الجو مثل ملقط هائل. قال بعضهم ان البدو بنوه في الماضي لتكون مصائد للغزلان، اذ يخفون

انفسهم ورماحهم وقسيهم أو جريدهم خلـف الملقـط مـن الوسط، بينما يقوم رفاقهم بطرد الحيوانـات نحـوهم بـين الجدارين. ويظن آخرون انها محابس مياه نبطية. وكنا نفكر في استعمالها.

والى شرقها تقع منطقة الرويشدات حيث مراعي الربيـع لبدو الروالة في سوريا – التي هجروها الآن، وتوجهوا الـى الآبار الدائمة قرب دمشق والاراضي الزراعية. ومـا تـزال بعض الخيام السود للصلبة، مـن البـدو والجمالـة الـذين يعتبرهم البدو الآخرون اقل شأناً، ولكنهم يحتشـدون قريبـاً تحت رئاسة شيخهم معارف، ويتخلفون في هذه الاماكن بعـد الروالة. اعتنقوا الاسلام صادقين منذ عهد قريب وما يـزال اصلهم موضع نقاش. فيظن بعضهم انهم احفاد الصليبيين او مرتزقة الصليبيين، بسبب من اسمهم، وبسبب صـليب الـدم الذي يرسمونه على الخيمة عند ختان الصبي.

الروالة عرب (عاربة) أقحاح من قبيلـة عنـزة، وابنـاء عمومة آل سباع وفدان في بادية الشام، والغجير على حدود نجد والحجاز؛ ويسيطرون على اغلب الآبار والمراعـي فـي المثلث الصحراوي العظيم بين حلب وشرق الاردن والجزيرة

العربية والعراق الذي نمر فوقه الآن ومروراً بالواحات المحاذية للفرات يمر غرب الحبانية، الى حلب والاناضول؛ طريق قديم ما يزال واضحاً من الجو في المناطق الصخرية. وكان تحتنا لدى اقترابنا من البحيرة، منخفضات سود، مليئة بالقير – اخوات بائسات للحبانية السعيدة، المشرقة، الزرقاء.

ثم اكمل مهندسو الجيش البريطاني، فيما بعد اثناء الحرب، تعبيد الطريق عبر الصحراء لاستعمال الجيوش في العراق وايران، وبعد سبع سنوات رأى الوصي على عرش العراق جيشه المزود بالآليات يتقدم عليه داخلاً فلسطين.

استقبل اللواء الطيار في معسكر الحبانية طيارتنا واخذنا الى بيته مباشرة حيث التقينا بالفريق كلارك آمر قوات الامداد وضباط اركان. وبعد دقيقة من تعرفهم بنوري باشا جثا معهم على ركبتيه على الارض وصاروا يتأملون الخرائط والترتيبات الخاصة بالعمليات. وكان نوري مفعماً ايضاً بالافكار، وقدم معلومات نافعة للواء عن البلد. ثم واصل نائب مارشال الجو واللواء العمل. وسرعان ما كان دوي طائرة ثقيل فوق رؤوسنا، وصوت انفجار قنبلة على بعد اقل من مئة ياردة، وتبع ذلك ارتطام قنابل اخرى بعيدة.

لجأنا الى الصالة لنحتمي تحـت الاطـواق وسـأل الوصـي حاشيته مبتسماً فيما اذا كان احد مـنهم يشـتاق الآن الـى القدس المدينة التي ارادوا مغادرتها الـى العـراق ومـا ان توقفت طائرة " الميسر شمت" الالمانية عن قصـفها خرجنـا بالسيارة الى مخيم أعـد للوصـي تحـت اشـجار النخيـل والصفصاف على ضفة النهر بين الحبانية والفلوجة. وشقت بعض الخنادق الطولية بجانب خيام صغيرة مموهة بالصـبغ؛ كانت هذه الخيام تستعمل لايواء رجال في الصحراء الغربيـة في مصر وشمال افريقيا، ولايوائهم في كثيـر مـن ميـادين المعارك. وقال جنديٍ مر بنا اثناء عمله في اعـداد المخـيم بلهجة مؤدبة نعم مسرورون بوجود امير عربي معهـم فـي الميدان، ونبهت الحاشـية ان يكونـوا حـذرين ولا يتركـوا سياراتنا واقفة في الطريق قرب المخـيم والا يتركـوا أثـراً واضحاً من الطريق الى المخيم، ولكن الالمان سـرعان مـا اكتشفوا ذلك وحلّقت في الصباح الباكر لليوم الثاني طـائرات الميسر شميت. وما ان وصلتُ مع ضابط عراقي اسير، القت القبض عليه قوات " الفيلق العربي"، من اجل استجوابه، حتى ازّت الطائرة فوق حافة الجرف وصارت تصلينا برشاشـاتها.

وعندما كرر الطيار الالماني زيارته ثلاث مرات نقل المخيم الى مبنى صغير، على ضفاف بحيرة الحبانية، هدمه (المتمردون) ونهبوه، ولكنه في الاقل كانت له جدران.

كانت الارض مغطاة بركام من زجاج، واثاث محطم، وستائر ممزقة، وصور وملصقات ممزقة، واسلاك كهربائية منزوعة من الجدران، ولوازم الفندق المكسرة...

وحاربت حامية الحبانية بشجاعة. وكان المتمردون قد اتخذوا مواضعهم على التلال المسيطرة على المعسكر، وكانت طائراتهم تقصفه. كان محيط المنطقة التي يدافعون عنها سبعة اميال، ولولا هجوم الحامية وطرد العدو عن ابوابها، لهلكت. واعيد مدفعان قديمان عيار ٤ر٥ عقدة الى الخدمة بعد ان كانا يستعملان للزينة امام الابواب، ولم يكن لدى المدافعين عن الحامية سواهما، وكانت الطائرات لديهم، طائرات تدريب قديمة وقليلة العدد، وكانت معنويات الحامية الصغيرة هي المنقذ لهم. وفكوا الحصار بهجوم مباغت جريء، واستعادوا الاراضي المرتفعة المسيطرة على المعسكر، يقودهم النقيب اليستير كريام من " الرويال دراكونز"، وسريته التي احتلت الجسر الوحيد على نهر

الفرات ودخلت مدينة الفلوجة وسيطرت عليها، وصدوا هجمات شديدة، وبعنف مقابل، وانتشرت في الميدان التعزيزات الآتية عبر الصحراء، من فلسطين وهي تقتفي اثر المتمردين ووجد " الفيلق العربي" للملك عبد الله طريقاً عبر نهر الفرات قرب الحبانية، واستطاع ان يمنع استعمال الطريق من الموصل الى بغداد نهاراً. وتنامت القوة العراقية الصغيرة للوصي عبد الاله وسرعان ما اصبح قادراً على السيطرة على الميدان بواسطتها اما القوة الثانية فهي الرتل البريطاني، كان يتقدم بطيئاً نحو بغداد حسب ما تمليه الضرورة في بلد يفيض بالمتمردين.

والقت القوة الجوية الملكية رسائل تشجيع من الوصي ورسائل على القصر الملكي في بغداد، على امل ان تتسلمها الملكة. وقد قال الطيارون انهم رأوا سيدات يلوحن بايديهن من الشرفات، ولكن الحرس اسرعوا والتقطوا الرزم، ولم تصل الى ايدي العائلة المالكة. وكان الملك، في حقيقة الامر، قد نقل بواسطة المتمردين الى اربيل ليوضع تحت الاقامة الجبرية لدى احد الوجهاء.

كان اللواء البريطاني، في نهاية مايس، مايزال مرتاباً من النجاح المبكر.

كان العدو مستحكماً في مواضعه، تسانده المدفعية في الكاظمية. وصار الرتل البريطاني على بعد ثمانية أميال من غرب بغداد، يصلح الجسور المحطمة على الجداول، وهو يتقدم. وقال اللواء: ان البلد هبّ للدفاع بالرشاشات التي يمتلك العدو كثيراً منها. على انه تأكد خبر هروب رشيد عالي. وضاعفنا القاء المنشورات على بغداد والريف، التي تحضّ الشعب على التخلي عن المتمردين ومساندة الوصي. في اليوم التالي اظهرت الاذاعة ان معنويات المتمردين كانت متدنية. ووصلت برقية من ايران تقول ان رشيد عالي عبر الحدود. وتلتها اشارة لاسلكية من السفارة البريطانية، الاولى بعد صمت طويل، تعلن وصول مبعوثين عراقيين في الساعة الثانية صباحاً في ٣١ مايس، الى الجسر الحديدي على نهر الخر، على بعد ميل غرب بغداد.

وخرجت مع النقيب سبينس، من ضباط الحرس الوطني البريطاني، متأخرين في تلك الليلة، وانطلقت لمقابلتهم. وجاء معنا علي جودت وصباح السعيد، الى ماوراء نقطة لواء

الخيالة. وكانت ماتزال تسمع اصوات اطلاق الرشاشات بين حين وآخر، ولكننا تقدمنا الى حيث الخنادق غرب الجسر الحديدي بمسافة قليلة. وتوقف اطلاق النار المتقطع بعد وصولنا مباشرة، وخيّم الصمت لولا نقيق آلاف الضفادع، ورفرفت راية السلام التي هي شرشف سرير مربوط بعمود يحمله سائقنا.

انتظرنا وانتظرنا، وكنت احيانا اهتف قائلاً: " السلام عليكم" احتمالاً لوجود بعض المبعوثين المختبئين. فلم يرد علينا أحد في ذلك الليل. علا نقيق الضفادع اكثر. واخيراً جاء ضابط استخبارات من مقر اللواء برسالة تقول ان المبعوثين سيصلون في الساعة الرابعة وليس الثانية. وكانت الرابعة الا خمس دقائق.

أنيرت فجأة الاضواء الامامية للسيارة، واستدارت كأنها تبتعد، ثم عادت مرة أخرى تقترب منا. وكانت السيارة تتحرك بصعوبة واضحة في الحقل بين الخنادق، وتوقفت. وفيما بعد استخدمت المصابيح اليدوية محل اضواء السيارة. وقلت لسبينس: يجب ان نكون لطيفين، لا عاطفيين. ويمكن ان نتفاوض معهم بشأن النقاط الصعبة فيما بعد. وما كدت

اقول ذلك حتى ظهر الموفدون. جاءوا يتعثرون بركام الارض المحفورة، وكان النقيب غازي الداغستاني على رأسهم. رحب بي غازي بحرارة، واستجبت انا في الحال لذلك، لانني اعرفه جيداً، كنا غالباً نخرج للصيد معاً، نستخدم البنادق والصقور. لابد ان سبينس دهش لحرارة اللقاء بيننا.

لقد قابلني أحد أصدقائي، بدلاً من ضابط لا اعرفه كما توقعت. كان غازي ابن محمد باشا الداغستاني المشير في الجيش العثماني، وآمر الحرس القفقاسي لدى السلطان عبد الحميد الذي كان والياً والقائد الاعلى للقوات المسلحة في ولايات العراق، واستقر فيه عند انتهاء خدمته حتى تطوع في الحرب العالمية الاولى وقتل في معركة كوت الامارة. وكان من أجداد غازي، البعيدين الشيخ شامل، بطل القفقاس الشرقية والمدافع عنها ضد الروس الذي ادخله تولستوي في احدى قصصه باسم "حجي مراد". كانت العائلة من اسرة حاكمة في داغستان، أي شمال الطرف الشرقي للقفقاس، في الجبال التي تحد بحرقزوين. كان غازي، كاغلب افراد عائلته، لطيف البشرة، طويل القامة؛ كان شكله أخاذا في ضوء المصابيح وله عينان تلمعان. ولكننا عندما تحدثنا لم تعد

حاجة للمصابيح فأطفئت إذ بزغ الفجر فبان الريــف المثقــل بالمياه المتسربة. واضمحل نشيد الضفادع الأجش.

طلبت اولا الذهاب الى السفارة لرؤية السفير، سير كينهان كورنواليس، فاننا لا يمكن ان نتفق على صيغة دونه. ووافق الفريق كلارك الذي جاء ماشياً في تلك اللحظــة مــع نائــب المارشال الجوي. وذهبنا بواسطة الســيارة نعبــر الطــرق والشوارع الخالية. ووجدنا ان البريطانيين في داخل السفارة مايزالون نائمين واتجهنا الى غرفة نوم الســفير. وتخطينــا فوق خادمه الذي كان متمدداً امام الباب فوثب لايقافنا قبل ان نفتح الباب، ثم دخلنا عندما كان الســفير يرتــدي ملابســه، وتحدثنا الى الرجال والنساء المحتجزين مدة طويلــة الــذين استيقظوا الآن. وقدموا لنا كوباً اثر كوب من الشاي بســبب الساعة المبكرة قائلين لنا خمسين مرة في عشرين دقيقــة: " تفضل كوباً من الشاي"، وسألونا بقدر ذلك " اين الجيش ؟".

وخرج السفير يستقبل الفريق كلارك، وصيغت، على عجل، الشروط التي تمت في الطريق ووقعها العقيد اسماعيل نــامق والعميد نصرت والعقيد الركن نور الدين محمــود، والفريــق جورج كلارك، واللواء الطيارج. هــ. دالبياك.

وارسل امير شرق الاردن برقية تهنئة الى الحكومة البريطانية يثني فيها على "روح الصداقة التي تربط بين العرب والبريطانيين" وعلى " التعاون الذي تم بين صاحب السمو الملكي الوصي واتباعه، والشخصيات العراقية، والسلطات البريطانية المسؤولة الذين كانوا الى جانبه والسياسة الحكيمة التي اتبعها القادة البريطانيون في البر والجو".

واستقبل الوصي استقبالاً حماسياً قرب الجسر الحديدي من وجهاء بغداد وعلى رأسهم عضو مجلس الأعيان السيد محمد الصدر، وارشد العمري، الأنيق الحاد الذكاء، امين العاصمة. ولو ان امين العاصمة حقق ما اراد لتأخر الاستقبال. فقد رغب في اقامة استقبال حافل ولكن بعد الاضطراب الهائل في الاسابيع الماضية حصلت صعوبة في الحصول على الأواني والندل والكيك. فأصر الوصي على تأجيل هذا الشكل من الترحيب، ودخل العاصمة بعد ساعات قلائل منتصراً بسيارته. وكان اهتمامه العاجل مخابرة الملك في اربيل. كان الصبي سالماً، ولكنه مشتاق للعودة الى بغداد لرؤيته.

وهكذا دَحَر الغزاةُ المخربين مرة اخرى.

ولابد ان رجال الجيش البريطاني، الذين وصلوا بغداد، ومن تلاهم في الجيش العظيم تحت امرة الفيلد مارشال لورد ولسن في ايران والعراق، توقعوا ان يجدوا مدينة فاتنة؛ عاصمة الخلفاء في الف ليلة وليلة.

ولابد ان مشاهدتهم الاولى لها خيبت مثل هذه الاشواق الخيالية. فقد دمر المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة العباسيين القديمة المبنية بالطابوق وقتلوا اكثر من عشر سكانها، على ماتقول الروايات، في سنة ١٢٥٣ م، وظلت قرابة سبعة قرون تندب الخراب الذي حل بها. ولم يكن لها غير خمس وعشرين سنة لتستفيق من هذا الخراب، وتعود عاصمة، وشقت الشوارع هنا وهناك. وظهرت بعض الضواحي لتخفف بعض الازدحام في طرقاتها، ولكن ذلك لم يكد يبلغ النجاح، اذ ان المدينة بانتظار اعادة بنائها. حكمها المغول الايلخانيون اكثر من مئة سنة. اغلب سكانها من العرب، ولكن ليس ثمة سمة بغدادية مميزة الا بين لا بسي الجراوية، من الصناع والحرفيين في الغالب، ذوي الرؤوس المستديرة والعيون الواسعة والبشرة اللطيفة الذين يذكروننا بالسومريين. ومن ناحية اخرى، فان لطف العراقيين، وحسن

ضيافتهم، ومودتهم لضيوفهم أمر راسخ ويضرب به المثــل، وحبهم للسلاح شيء مشهور ورجولتهم مسألة ثابتة.

في عام ١٩٤١، جاء الجــيش البريطــاني مــرة أُخــرى، ليعسكر بين بساتين النخيل على ضفاف نهر دجلة، ذلك النهر الذي شهد بدء الحضارة، مهيب، في الفيضان، عظيم؛ غليظ قوي، وذو عزم نبيل. دجلة اغزر الانهار طيناً، يوزع ثــراءه العظيم من الماء والرواسب بسخاء، وليس دائماً في امــاكن ترحب بذلك السخاء، ماؤه احياناً بلون الخوخ، وبنــي، فــي غالب الاحيان، كالدانوب الازرق والنيل الازرق. يلتوي فــي مساره – في دورات متعرجة تتقاطع فيما بينها بــين حــين واخر فتجعل مجرى النهر مستقيماً مرة اخرى – ليجري فــي سهول منبسطة، وتعلوا قامته استجابة عنيفة للفــيض فــي وديان ووهاد آشور، في موسم الصيهود، لايرى مــن زورق جارٍ على صفحة النهر سوى جرف قاحل من ارض يابســة، وتحته ضفاف ممهدة من الطين تــزرع بالخضــار والرقــي. ويلقي اصحاب الزوارق شباكهم من اجل صيد ســمك كبيــر الحجم كثير العظام، يشق ويشوى على جمر الحطب، تضاف اليه التوابل والطماطة. ويسمى ذلك "المسكوف"، ويؤكل، في

حينه ومكانه، بالاصابع، على ضـفة النهـر. ويقولـون ان "المسكوف" افضله في شهر مايس، لانهم ينفضون التوت من اشجاره الحانية على النهر طعماً له والسمك الذي اكل التوت سمين ولذيذ.

وعندما يغيض الماء، في الصيف تظهـر جـزر، سـرعان ماينصب الشباب عليها اكواخـاً وجراديـغ، يقضـون فيهـا اماسيهم، ويغنون ويعزفون ويسبحون ويـأكلون المسـكوف ويتلون الحكايات.

في اماسي الخميس تأتي طافيـة ألـواح صـغيرة مـن الخشب، تتلألأ عليها شـموع مشـتعلة - واحـدة، احيانـا، واحيانا اخرى اثنتان او اكثر - نذر الى خضر الياس، واهب الحياة والصحة، قريب في الاساطير للقـديس جـورج فـي انكلترا، والاسكندر المقدوني ذي القرنين، وأدونيس. ويعتقد السماكة البغداديون ان السمك يذهب للحج وعنـدما يفـيض نهر الفرات يتحول السمك نحو وادي حجلان ثم يعود، فتجـد حشوداً متواصلة من الاسماك ذاهبة وراجعة، اما التـي فـي دجلة فانها تزور بحاثة، وراء مدينة بلد وتضع بيضها علـى الحصى.

اصبحت القفف السوداء المطلية بالقير اندر الآن، لان اغلبها اخذ الى جنوب سدة الكوت، حيث لم يعد ينجح السمك الكثير في اجتياز السدة الى شمالها. للعراق ثروات كامنة - ويمكن لمشاريع الري ان تزيد غلته، وثروته، ونفوسه؛ وان المبالغ التي تدفع، من المصادر المعدنية ستجعل البلد قادراً على المباشرة بالخطط من اجل منفعته.

دفعت شركة نفط العراق في الماضي الى الحكومة العراقية اربعة شلنات ذهب لكل طن من النفط - اكثر من ٣٠% من دخلها الاجمالي في سنة واحدة. يقع حقل النفط الرئيس في كركوك، ويرتبط بخط انابيب ينقل ما يبلغ ٤,٠٠٠,٠٠٠ طن سنوياً الى مينائي حيفا وطرابلس على البحر المتوسط. (وقد توقف خط حيفا نتيجة للاضطرابات في فلسطين، في وقت كتابة هذا الموضوع). ويجري العمل الآن على توسيع الخط، وقد يستوعب اخيراً قرابة ١٠,٠٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. وتوجد ايضا شركة نفط الموصل، وشركة نفط البصرة المحدودة، وشركة نفط خانقين المحدودة. وتقوم شركة نفط الموصل بالعمل في حقل ينتظر له مستقبل مرموق في عين زالة (يسميه البدو زانة) على بعد اربعين ميلا شمال غرب

مدينة الموصل. وهي، كشركة نفط البصرة، لم يتقدم العمل فيها عندما توقفت الحرب، ولم تمر عليها مدة كافية لتنبئنا بجدارتهما الكاملة للحكومة.

تأسست شركة نفط خانقين في ١٩٢٥ لتطور حقل نفط خانة، وهو سابقاً جزء من " امتيازدارسي" الذي جعلته لجنة الحدود التركية الفارسية في ١٩١٣-١٩١٤ من حصة تركيا. يزود الحقل قرابة ٢٠٠ر٠٠٠ طن سنوياً، تضخ عبر انبوب الى الوند، جنوب شرق خانقين، وتسوقه في العراق شركة نفط الرافدين، وهي شركة فرعية من شركة النفط الانكلوايرانية. وثمة مشروع لمصفى حكومي يجري العمل قدماً فيه.

وبهذا يكون العراق واحداً من الدول الثمانية الأولى المنتجة للنفط في العالم، وسوف يرتفع دخله وفق الطاقة القصوى لخط الانابيب الذاهب الى البحر المتوسط.

يمكن ان يكون العراق واحداً من اعظم مناطق انتاج القمح في العالم. قال عنه هيرودوتس: "لا يوجد بين البلدان التي نعرفها من يضاهيها في غزارة الحبوب". يمكن ان تتعاظم غلته بالمكننة وخزانات المياه على ما كان عليه قبل ان يدمر

المغول جداوله في القرن الثالث عشر. تضـــاعفت حاصــلاته من القطن والتبغ في سنوات الحرب ويمكن ان تزداد اضعافاً اخرى.

هوامش المترجم

١-ترد في عنوان الرحلة وغضونها اصطلاحات عسكرية وغيرها ليست عربية، رأيت من المناسب اعطاء معانيها.

أ - نواب:

من القاب ابناء الملوك وهي من العربية وتعني الوصي او الحاكم. وهي ايضاً لقب لامير مسلم في الهند، ويطلق ايضاً على شخص مسلم من ذوي المنزلة السامية وليس له وظيفة.

ب - يار جونك:

يار الشجاع وجونك المحارب فهي تعني المحارب الشجاع.

جـ - بهادر:

أي البطل.

د - افسر الملك:

وتعني تاج الملك وهي رتبة عسكرية تعني الضابط.

هـ ـ النظام:

وهي من العربية وتعني لقب حكام حيدر ~آباد المسلمين بالهند من عام ١٧١٣ الى عام ١٩٥٠.

٢- شاه جهان:

هو الامبراطور المغولي المتوفى عام ١٦٦٦ حكم من ١٦٢٦ الى ١٦٥٨ وفتح كثيراً من بلاد جنوب الهند. وبنى صرحاً او ضريحاً فخماً لزوجته ارجمند يعرف بتاج محل في اكرا. وشاه جهان هو لقب خُرَّم ابن الامبراطور جهانجير بن تيمور نال مكافأة على انتصاره في بلاد الدكن عام ١٦١٦.

٣- ستيفن لنج:

كان اول امر ستيفن لنج تشغيل باخرتين في المياه العراقية بعد عام ١٨٤١، وقام لنج وفيلكس جونز وآخرون بعمليات المسح ورسم الخرائط في العراق وظلت هذه الخرائط تستعمل حتى سنة ١٩١٤، وكان لشركة لنج فروع في الهند ودول الخليج العربي والعراق للنقل البحري. واستعملت باخرتين حديثتين في سنة ١٨٦١ وكانت تنافس بواخر "ادارة عُمان العثمانية". وكان ستيفن لنج قد اشتغل في العراق سنتين وغرق اخوه في الباخرة "دجلة" في شهر مايس ١٨٢٦ لهبوب عاصفة وغرقها في نهر الفرات وكانت شركة لنج يطلق عليها الاهالي "بيت لنج" وكان مقرها في البناية القريبة من عمارة البدوي الحالية وقد اصبحت الآن

سوقاً عصرية وكانت فيها مكتبة تبيع الكتب الانكليزية وتسمى مكتبة مكنزي.

٤-ذكر ان النخل يبدأ بالحمل في ايار وينضج في ايلول ويكون منظر الاشجار بديعاً في شهري ايلول وتشرين الاول، اشد شهور السنة حرارة، غير ان الصحيح ان النخل يبدأ طلعه في شهر آذاروينضج في شهر تموز اما اشد الشهور حرارة فهما تموز وآب،

٥-الليبرة هي وحدة وزن رومانية قديمة تساوي ٥ر٣٢٧ غراماً وتسمى ايضاً باون أي الرطل الانكليزي ويساوي ٤٥٣ غراماً.

٦- الرُبية هي عملة عثمانية تساوي بعملتنا اليوم خمسة وسبعين فلساً. كانت مستعملة في بغداد في عام ١٧٥٠ م وهي عملة هندية او متأثرة بها واصل الكلمة من السنسكريتية.

٧- نهر الكارون احد روافد شط العرب وليس الفرات.

٨- جمدار = من جاما أي ثوب، ودار أي حامل فيكون المعنى حامل ثياب السلطان او الامير او المسؤول عنها.

٩- ذكر تعبير "سلام در" فاخطأ لانه من الايعازات العسكرية وصوابه "سلام خذ".

١٠- ترد كلمة الافطار بمعنى وجبة الطعام او الطعام عموماً وهي هنا تعني الغداء.

١١- زبيدة خاتون أي السيدة زبيدة زوجة الخليفة هـارون الرشيد وهي طبعاً غير زبيدة خاتون زوجة السلطان ملكشاه السلجوقي. ويطلق ايضا على زمرد خاتون اسم زبيدة خاتون وقبتها في كرخ بغداد.

١٢- لم تشق زبيدة قناة من سوريا الى الكعبـة فهـو امـر مستحيل وغير منطقي، بل دعت خازن اموالهـا وامرتـه ان يدعو المهندسين والعمال من انحاء البلاد وقالت له: "اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً ".

ووفد على مكة اكفأ المهندسين والعمال ووصلوا منابع الماء في الجبال واعتمدوا على عين حنين فارسلوا منهـا المـاء تحت الصخور حتى تغلغل من وادي النعمان علـى مسـيرة ١٠كم من مكة وصار اهلها وحجاج البيت يستقون من مائها التي سميت بأسم "عين زبيدة" ولا يزال هذا الماء يجري الى مكة بعد تطويره حديثاً. كما ان السيدة زبيدة مهـدت طريـق

الحج من العراق الى الحجاز عبر الصحراء وبنت عليه المرافق والمنازل وحفرت الآبار ومازال يعرف بأسم "درب زبيدة".

١٣- يقصد بالغوث الاعظم الشيخ عبد القادر الكيلاني ولا ينبغي هذا الوصف الا لله وحده. واليه تنسب العائلة القادرية التي ينحدر منها عبد الرحمن النقيب.

١٤-القبضة وحدة قياس ارتفاع الخيل وتساوي اربع عقد (انجات).

١٥- يرد ذكر مابين النهرين بأسم النهرين ويقصد بذلك الجزيرة أي مابين دجلة والفرات في شمال العراق قرب الموصل.

١٦- الزبون بلغة اهل العراق يطلق على الرداء الطويل الذي يشبه المعطف ويصل الكاحلين، وقد مر ذكره في الرحلة بتعبير سترة طويلة، اما ماذكره هنا فهو المقصودبه الكفية او الغترة او " اليشماغ". وكلمة زبون مستعملة في العراق ونجد وشمال افريقيا. ولعلها من (زبن) أي كف او دفع - البرد - وتعني ايضاً المكان الضيق فهو اذن ثوب ضيق بالنسبة الى العباءة والقباء.

١٧- الفيز هو الطربوش الاحمر من صنع مدينة فاس المغربية وهو لباس الرأس لدى العثمانيين والمغاربة.

١٨- فيضان عام ١٩٠٧ الذي بدأ إثر هطول الامطار وذوبان الثلوج يوم الخميس ٢٨ آذار.

١٩- يقصد بالوادي العريض النهر الدارس.

٢٠- صوبه دار أي الحاكم او الوالي او الآمر.

٢١- عملدار صوابها علمدار أي صاحب العلم.

٢٢-هيترو داتس صوابه هيرو دوتس، المؤرخ اليوناني المعروف.

٢٣-ذكر د. حسن ابراهيم حسن في كتابه تاريخ الاسلام الجزء الثاني طـ ٧ بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٥ ومصادره الطبري وابن الجوزي في مناقب بغداد، والفخري، انهم ذكروا حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق. ذلك ان راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل اصحاب المنصور عن الرجل الذي يريد ان يبني المدينة فقيل له امير المؤمنين الخليفة المنصور، فسأل الراهب عن اسمه فقيل عبد الله، فسأل عما اذا كان للخليفة اسم غير هذا فقيل: اللهم لا، الا ان كنيته ابو جعفر ولقبه المنصور. فقال الراهب للرجل:

اذهب اليه وقل له لايتعب نفسه في بناء هذه المدينة، فإنا نجد في كتبنا ان رجلاً اسمه مقلاص يبني ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن، وان غيره لايتمكن من ذلك، فجاء الرجل الى المنصور، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير: " أما والله كان اسمي مقلاصاً وكانت تضرب به الامثال. وكان لنا عجوز تربيني فاتفق ان صبيان المكتب جاءوا يوماً الي وقالوا لي نحن اليوم اضيافك. ولم يكن معي ما انفقه عليهم، وكان للعجوز غزال، فاخذته وبعته بما انفقه عليهم، فلما علمتْ اني سرقت غزالها، سمتني مقلاصاً، وغلب علي هذا اللقب، ثم ذهب عني والآن عرفت اني ابني المدينة.

٢٤- اطلق ابو جعفر المنصور على المدينة التي شيدها اسم "مدينة السلام" تيمنا بالجنة وتثبيتاً لذكر الله الوارد وفي القرآن الكريم بأسم "السلام". وصار الناس يسمونها "مدينة المنصور" نسبة الى الخليفة الذي شيدها، وسميت ايضاً "الزوراء" و"المدينة المدورة"، واطلق عليها وعلى ماشملته من ابنية اخرى عند توسعها اسم "بغداد" الذي كان يطلق على هذه المنطقة منذ ايام البابليين - العراق في التاريخ - بغداد ١٩٨٣.

٢٥- قول بان أي النسابون وهنا هم نسابو الخيل.

٢٦- تقسيمات الفصول هنا وتسمياتها غير مضبوطة ولهـا عند ابناء الشعب تقسيمات واسماء اخرى.

٢٧- جائرة أي سوق.

ذكر المؤلف ان الزبير تبعد عن البصرة عشرين ميلاً، وهي اليوم تبعد عنها نحو عشرين كيلو متراً، ولعل تقـديره ذلـك ناجم عن الطريق الملتوية آنذاك.

وذكر ايضاً انهم لعبوا لعبة "البولو". واقول كـان يسـميها العرب في ايام العباسيين "لعبة الكرة والصـولجان" وكلمـة صولجان كلمة اجنبية تعني بالعربية العصا المعقوفة الرأس. وأصل اللعبة من التبت التي جاءت منها كلمة بولو.

وذكر كذلك ان لضريح الامام الحسين اربع منـائر مذهبـة، وهي في الحقيقة منارتان وقبتان.

طبعت هذه الرحلة في بومبي في مطبعة جريدة بومبي سنة ١٩٠٨ وقد اهداها مؤلفها – الذي كان في القوات المسـلحة لصاحب السمو النظام – الى العقيد نواب الملك بهادر أفسـر المرافق الاقدم لصاحب السمو وامر الجيش النظامي والنظام دليلا على الاحترام والمحبة. فكان يعد نفسه ايضاً مطيعاً له.

المصادر:

*Sixty years in the East
By: Sir william willcocks
London, ١٩٣٥.

*Atrip to Baghdad
By Nawab Hamid yar Jung Bahadur
Bomby, ١٩٠٨

*Middle East
١٩٤٠-١٩٤٢

*A study in the Air power
By philip Guedalla
London,١٩٤٤.

الادارة والارشيف
آمال مهدي
التنضيد الالكتروني
سندس مهدي
التصحيح الطباعي
حنان محمد
المتابعة
هدى كاظم

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق بغداد ٨ ٦ ٢ لسنة ٢٠٠٩

هذا الكتاب

هذا الكتاب هو كتاب مذكرات .. كتبها وليم ويلكوكس اثناء وجوده في العراق إبان الحكم العثماني، وترجمها بامانة معهودة كاتب كبير هو كاظم سعد الدين .. تتداخل في هذا الكتاب المدونات التاريخية القديمة لحضارات إمتدت على مساحة أرض العراق بأوسع قدر يمكن ان تمتد به حضارة على ارض، وانطباعات رجل غريب معاصر عن حاضر غير متألق لكنه دفين.

يجمع الكتاب بين دفتيه حالتين لبلد عريق انقطع تواصله عن ماضيه فبدأ حاضره من الصفر وتحت هيمنة غربية، وان لم تفلح في جره الى حضيرتها، فانها في الأقل عطلت مسيرته على مدى بضعة قرون.

والكتاب توثيق عام لأحداث وتقاليد ومعاملات واجراءات ترسم لوحة عامة وواسعة المشهد للاحوال في العراق قبل الاستقلال.

ليس من شك في ان تأريخاً يكتبه أجنبي قد لايحقق رغبتنا في مشاهدة صورتنا، وانه لن يكتب بمنظورنا، لكن ما يشفع لنا قراءة هذا الكتاب، مدونات ما كان لها ان تظهر الأ بايدي غيرنا .. من هنا أصبح علينا ان نقرأها متأملين مراوحين أعيننا بين المتعة فيها والحذر منها.

Cultural Encyclopedia
Monthly Cultural Series in
Various Branches of Science ,
Art and Literature

السعر (٥٠٠ دينار)